بابتسامة

جارية في عرش السلطان

تحت الشمس الساطعة فوق أرض سمرقند فارس ملثم يمتطي صهوة حصانه يركض بأقصى سرعة لديه في صحرائها الواسعة حتى ولج الى داخل اسوار المدينة

**********

وفي قاعة القصر كان السلطان شايان يروح ويغدو في قلق شديد بعدما تأخر الرسول المرسل الى بغداد فقال وهو يجلس على عرشه:
لماذا تأخر رسولك ايها الوزير؟
اخفض الوزير تقي الدين بصره نحو الارض وقال بأدب:
لا اعرف مولاي السلطان،من المفترض ان يكون هنا منذ ساعات الصباح الاولى
صاح السلطان وهو يضرب يد الكرسي بقبضته في غضب:
وبماذا تبرر تأخره حتى منتصف النهار؟
فتح الوزير فمه وكاد ان ينطق بكلمات كانت ستزيد الامر تعقيدا لولا انقذه دخول احد الحراس يخبر السلطان بوصول الرسول فتنفس الصعداء،سمح السلطان للرسول بالدخول الى القاعة فوقف امام السلطان وهو يبدي احتراما كبيرا ثم مد الرسالة التي جاء بها من بغداد الى الوزير الذي اخذها منه وهو يرمقه بنظراته الساخطة ثم استأذن السلطان للانصراف ولكان الاخير ابقى عليه حتى ينتهي الوزير من قراءة الرسالة
فتح الوزير الرسالة وشرع في قرائتها بصوت مسموع
(من السلطان إسماعيل ابن داوود سلطان الدولة ببغداد الى السلطان شايان سلطان الدولة في سمرقند،السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
فقد وصلنا رسولكم وتسلمنا منه رسالتكم التي تطلبون فيها من سلطنتنا دعمكم ومساندتكم في وجه دولة الروم المعتدية لذا فإنا نطمئنكم انا بعون الله معكم وسيكون النصر حليفنا وحليفكم ان شاء الله تعالى ولكن عليكم امهالنا بعض الوقت لنجهز لكم جيشا بإذن الله وعونه سينهي تلك الدولة ويقتلعها من جذورها والله الموفق وهو الهادي الى سبل الرشاد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)
انتهى الوزير تقي الدين من قراءة الرسالة فقال السلطان وهو يحدق بالفراغ امامه:
هذه الرسالة فخ لنا
ثم تابع موجها حديثه للرسول الواقف امامه:
هل رأيت شيئا مريبا في قصر سلطان بغداد؟
ظل الرسول صامتا لبعض الوقت ثم قال:
حينما سمع السلطان فحوى رسالتكم ثارت ثورته وكاد ان يقتلني بسيفه ثم قال:
تريد سلطنتك الغبية ان ندعمها في حربها ضد الرومان؟
ثم ابتسم وتابع:
سندعمها ولكن بطريقتنا ولترني كيف ستستطيعون هزيمة الرومان ايها الفارسي الحقير؟
قاطعه السلطان مستغربا:
كيف فهمت ما قاله؟
ابتسم الفارس وقال بفخر:
لأنني اجيد العربية كما اجيد الفارسية تماما مولاي السلطان
ابتسم السلطان ثم قال وهو يدنوا من الوزير(.....):
يبدو ان الوزير يستطيع اختيار رسله بعناية فائقة
فعادت الى الوزير ثقته بنفسه ثم قال باطراء:
هذا بفضل تعليماتكم مولاي السلطان
ضحك السلطان للنفاق الذي يبديه وزيره ولكنه لم يعلق ثم سمح للفارس بالانصراف وقبل ان تطأ قدمه خارج القاعة توقف وكأنه تذكر شيئا ثم استدار وقال:
مولاي السلطان....لقد رأيت في قصر سلطان بغداد شيئا لا اعلم ان كان مهما ذكره على مسامعكم ام لا

فقال السلطان على الفور:
هات ما عندك
ـ كان هناك مجموعة من الرجال في قاعة السلطان يبدو عليهم انهم ليسوا من العرب وحين تحدث احدهم الى السلطان تأكدت من ذلك اذ كانوا يتحدثون بلغة العجم
ثم صمت قليلا وتابع:
الرومان
ابتسم السلطان ثم اقترب من الفارس وقال وهو يضع كفه فوق كتفه:
يبدو انك فارس ذكي ومحنك،
ثم تابع:
لو كان شخص غيرك لما اكترث لوجود هؤلاء الرجال ابدا
ثم امره بالانصراف

******

كانت داخل مخضع الجواري تقوم بالعزف على احدى الالات الموسيقية حين سمعت من يهمس باسمها...جميلة وقد كانت حقا جميلة لها بشرة بيضاء كالثلج وشعر بني مموج اما عينيها فسبحان من صب العسل فيهما وخلق الورد في شفتيها وخديها دون الحاجة لأي زينة
دارت برأسها في المكان بحثا عن ذلك الذي يهمس فرأته يقف خلف النافذة لا يظهر منه سوى وجهه ويديه القابضتين على قضبان النافذة فاقتربت منه وقد تهللت اساريرها ثم قالت بدهشة:
يمان.....هل عدت؟
فقال مازحا:
لا مازلت في بغداد
عبس وجهها وقالت بحزن معاتبة اياه وهي توليه ظهرها:
تسخر مني يا يمان
منع نفسه من الضحك وهو يقول:
حاشا لله
ثم تابع:
اعتذر منك
فالتفتت اليه وابتسمت ابتسامة جميلة كشفت اللثام عن اسنان لؤلؤية ثم قالت:
اشتقت اليك يمان
فقال وهو ينظر نحو السماء مبتسما:
اااااه يا الهي ما اجمل هذا اليوم!
ضحكت لطريقته فسألها بلهفة:
هل سنلتقي الليلة؟
صمتت ولم ترد فقال وقد بدا عليه الضيق:
عموما ان لم نلتق الليلة فلن نلتق لمدة شهر كامل،فسوف اكون في المعسكر طوال هذا الشهر ولن اتي الى المدينة ابدا
ابتعد عن النافذة وشرع في الرحيل فأوقفته قائلة:
اين سنلتقي؟
ابتسم وقال:
اينما شئت
ـ هل تناسبك الحانة
صمت قليلا ثم قال:
رغم انها ليست مكانا افضل الذهاب اليه ولكنني موافق

********

عند منتصف الليل كان السلطان في مجلسه بين الجواري اللاتي يتراقصن ويقمن بعزف الموسيقة حوله فاستغلت جميلة انشغال كبيرة الجواري بذلك وخرجت من القصر متخفية في ثياب الخدم
وصلت الى الحانة فلم تجد يمان امامها كما اتفقا فولجت الى الداخل فلم تجده ايضا فشعرت بالغضب
عادت الى الخارج ومكثت لبعض الوقت منتظرة مجيئة ولما لم يأتي قررت الرحيل،لم تكد ان تخطو خطوة واحدة حتى سمعته ينادي باسمها،التفتت نحوه فرأته يأتي نحوها مسرعا وبمجرد ان وقف امامها اعتذر منها لتأخره فأشاحت بوجهها بعيدا عنه وقالت بغضب:
الم تكن قادرا على المجئ ابكر
ـ لم استطع الافلات من والدي حتى ذهب للنوم
ثم تابع وهو يمسك بذقنها لتلتقي عيناهما:
تعرفين اني وحيد والدي لذا يشتاق لي كثيرا اثناء غيابي ولا يرضى بخروجي من البيت طوال فترة بقائي في المدينة
لذا اعتذر منك مرة اخرى واعدك ان هذا الامر لن يتكرر ثانية
لاحت ابتسامة على شفتيها ثم قالت:
لا عليك
ثم دلفا الى الحانة
على احدى الطاولات في زاوية الحانة كان يمان وجميلة يتحدثان في سعادة حتى توقفت جميلة عن الكلام فجأة وهي تحدق خلفه وقد بدت متوترة بشدة،لاحظ التوتر الذي اعترى ملامحها فقال بشك:
ماذا حدث؟
قالت وهي تهم بالنهوض:
لقد تأخرت يجب ان اعود قبل ان يلاحظ احد ذلك
ثم تركته وغادرت قبل ان يستوعب ما يحدث،نظر في الاتجاه الذي كانت تحدق به فوجد شابا يجلس وحيدا على طاولة بالقرب منه وفي يده كأس من الشراب يحدق بنفس المكان الذي كانت تجلس به

*******

بعد شروق الشمس دلف يمان الى البيت فوجد والده السيد ابراهيم يجلس على بساط ارضي يمسك بين يديه كتاب الله عز وجل يرتل بعض اياته،اقترب منه وعلى وجهه ابتسامة عذبة ثم قال بأدب وهو يجلس بالقرب منه:
السلام عليكم يا ابي
اغلق السيد ابراهيم المصحف الذي بين يديه وقال:
صدق الله العظيم
ثم تابع بابتسامة:
ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..... اين كنت يا بني؟
ـ كنت في المسجد اصلي الصبح
نظر والده الى الاجواء حوله ثم قال مازحا:
اليس الوقت باكرا لأداء صلاة الصبح يا يمان؟
شعر يمان بالحرج من والده وقال:
بصراحة كنت اتسكع في المدينة بعد الصلاة
صمت السيد ابراهيم قليلا قبل ان يقول:
لماذا لا تخبرني انك انتظرتني لأنام حتى تذهب الى الحانة وتشرب الخمر يا ابن ابراهيم
كان من عادة السيد ابراهيم كلما غضب من ولده ان يناديه بابن ابراهيم بدلا من بني وكان يمان يدرك ذلك جيدا فقال محاولا الدفاع عن نفسه:
اقسم لك يا ابي انني لم اذهب الى الحانة لاحتسي الخمر او غيره بل ذهبت لملاقاة رفاقي
فقال السيد ابراهيم بهدوء:
ولكن من اخبرني انك ذهبت الى الحانة اخبرني ايضا انك كنت هناك رفقة فتاة
صعق يمان حينما اخبره بذلك ولم يستطع النبس ببنت شفة بعدما شعر بالخجل من نفسه فتابع والده بعدما تملك الغضب منه:
كل ذنب قد تقترفه يا يمان اغفره لك الا الذنب الذي يغضب الله

حاول يمان ان يعتذر من والده طالبا العفو فقال والده بحدة:
اطلب العفو ممن استهنت بعظمته يابن العرب
ثم تركه واتجه الى حجرته التي صفع بابها بقوة كادت ان تقتلعه من مكانه
لم يتمالك يمان نفسه واخذ يزرف الدموع فأكثر شئ يحزنه في هذه الدنيا هو غضب والده وفوق هذا كله ظنه انه ارتكب احدى الكبائر
بعد قليل من الوقت نهض واتجه نحو اناء به بعض الماء، توضأ منه ثم صلى الصبح الذي لم يكن صلاه بعدها جلس حيث كان والده جالسا وامسك بالمصحف واخذ يتلو الايات حتى خرج والده من الحجرة بعدما اذن لصلاة الظهر
فور ان وقع بصر يمان على والده هرع اليه واخذ يقبل يده وهو يبكي طالبا منه ان يسامحه،شعر السيد ابراهيم بالصدق في صوت ولده فقال برفق وهو يربت على كتفه:
انا اخشى عليك من غضب الله يابني لذا ارجوك حاول الا تقترف ذنبا يغضبه
فقال يمان بنبرة حزينة وبصوت منخفض بالكاد يسمع:
حاضر
ثم خرجا سويا لأداء صلاة الظهر،بعد الانتهاء من الصلاة ودع يمان والده للذهاب الي معسكره ولكن لم يكن ليذهب الى هناك قبل ان يرى جميلة ولكنه كان قد وعد والده الا يفعل شيئا محرما،هو يحبها ولكنه يعلم جيدا ان اختلائه بها من المحرمات لذا تغاضى عن الذهاب اليها ورؤيتها واتجه من فوره الى المعسكر

********

صراخ قوي يهز ارجاء الحرملك،كان صادرا من جميلة بعدما وشى بها الشاب الذي كان يحدق بها في الحانة الى كبيرة الجواري والتي تدعى سورنا فقامت بمعاقبتها بالضرب بالسوط وسط الحرملك وامام كل الجواري لتكون عبرة لهن
ايتها العاهرة
قالتها سورنا التي لم تكف عن سبها بهذه الالفاظ منذ علمت بخروجها من القصر دون علم احد
امسكت جميلة بالسوط فجأة ثم قالت بتحد وهي تحدق بعيني سورنا:
انت العاهرة وليس انا،على الاقل انا لا اذهب لمخضع السلطان مثلك ومثل بقية الجواري
ثم صمتت وهي تجذب السوط من يدها بقوة جعلته يفلت من قبضتها ثم تابعت وهي تنهض عن الارض:
سيتغير هذا يوما ما وحينها لن اكتفي بجلدك بالسوط فحسب بل سترين كيف سأجعل من صراخك المستمر نغمة يعتاد عليها اهل سمرقند
ثم القت بالسوط ارضا واتجهت الى حجرتها بينما بقيت سورنا في مكانها كالتمثال الذي لا حراك فيه لا تنكر انهل شعرت بالخوف بعد الذي قالته جميلة
اما الاخيرة فقد كانت منكبة على فراشها تبكي دون صوت وهي تتحسس اثار السوط على جسدها وفي داخلها تتمنى ان لو كان يمان قريب منها فمنذ ان وطئت اقدامها ارض فارس لم تري احدا يعاملها برفق كما يعاملها يمان ثم شرد عقلها الى ما قبل ثمانية اعوام حينما جائت الى فارس بين السبايا الذين تم اسرهم من روما
كانت في السابعة عشرة وكانت قادمة رفقة والدتها حين التقت يمان الذي كان في الثالثة والعشرين من عمره انذاك وقد كان جنديا مبتدءا في صفوف جيش سمرقند،كان ضمن الجنود الموكلين بحراسة الاسرى القادمين من روما حين رآها تحتضن والدتها وهي تبكي بشدة،اقترب منها بحذر ثم قال بالفارسية:
هل انتهما بخير؟
لم تفهما ما يقوله فأعاد سؤاله بلغتهما التي كان يعرف بعض المصطلحات منها فقالت الام التي كانت لكثر تماسكا من ابنتها:
نحن خائفتان
لم يعرف ماذا يقول اذ لم يفهم جوابهما فقام بمناداة جندي اخر يدعى پارسا كان يعرف لغة الرومان ولما جاء اليه سأله ان يسأل تلك المرأة عما تريد فاعترض پارسا وقال:
ابتعد عن الاسرى يا يمان ولا تتدخل في شؤونهم فهذا ليس في صالحك
فقال يمان برجاء:
پارسا ارجوك هذه المرأة تريد شيئا ولكني لا افهم لغتهما
فقال پارسا معترضا:
لا ولا ولا...لن اتدخل في هذا الامر ابدا
رفع يمان احد حاجبيه ثم قال بنبرة تهديد واضحة:

اذن انت الجاني على نفسك
ـ ماذا ستفعل؟
ـ لا شئ فقط سأذهب الى القائد وسأخبره من الذي سرق سيفه من داخل خيمته
زفر پارسا انفاسه بضيق ثم قال بحدة وهو يضربه بيده في صدرة:
ايها الوغد
ثم اتجه نحوهما وسألهما عما تريداه بعدها نظر نحو يمان وقال:
تقول المرأة انهما خائفتان بشدة وان ابنتها مريضة جدا وتخشى ان تفقدها
اقترب يمان منهما ثم جثا على احدى ركبتيه ونظر الي الفتاة التي كانت تهذي ففتح فاهه بذهول اذ كان وجهها ابيضا كالثلج ولون الورد في خديها وشفتيها من صنع الله سبحانه اما عينيها فهما للعسل حاويتان فقال وهو لازال على حاله:
سبحان من ابدع في صنع هذا الجمال
فلكزه پارسا في كتفه وقال:
من حسن حظك ان المرأة لا تفهم ما تقوله والا لصرخت وادعت انك تتحرش بها وبابنتها
لم يكترث يمان لما قاله پارسا ونهض وهو يأمره بالبقاء الى جوارهما حتى يعود غير آبه بصراخ پارسا به ان يعود الى مكانه
ذهب يمان الى حيث خيمة القائد واخبره بمرض احدى السبايا فأمره القائد ان يذهب الى الطبيب ويخبره ان ينظر حالها ففعل
انتهى الطبيب من فحصها وهم مغادرا فأوقفه يمان:
على الاقل اخبرنا ماذا بها لنطمئن والدتها
صمت الطبيب طويلا قبل ان يقول:
انها مصابة بالحمى وتحتاج الى الغذاء والراحة
ثم تركه ورحل، ظل يمان يلحقه بعينه حتى اختفى عن انظاره ولما نظر نحو پارسا وجده يحدق به فقال بحدة:
ماذا تنتظر ايها الاحمق؟... هيا طمئن المرأة عن حال ابنتها
بعدما اخبر پارسا المرأة بما قاله الطبيب عن حال ابنتها اخذت في البكاء فتبادل پارسا ويمان النظرا المتعجبة حول سبب بكائها فقال الاخير:
لماذا تبكي؟
سألها پارسا عن ذلك فقالت من بين دموعها:
تحتاج ابنتي للغذاء والراحة ونحن هنا نفتقر لكليهما
ثم تابعت بعدما علا صوت بكاءها:
نحن اسرى ولا نمتلك هذه الرفاهية
اخبر پارسا يمان بما قالته المرأة فشعر بالاسى لأجلها اذ كان كل ما يستطيع فعله في ذلك الوقت ان يوفر بعض الطعام لهما فقد كانتا على بعد لحظات من تسليمهما الى من ستكونان جاريتاه بقية حياتهما ثم تمنى ان تكونا في مكان واحد والا يتم التفريق بينهما
وبعد مرور بضع ساعات تم جمع السبايا في صفين متقابلين ثم جاءت سورنا كبيرة جواري قصر السلطان ومرت بينهما تنتقي منهن صغيرات السن فائقات الجمال فلفتت انتباهها،ظلت تحدق بها طويلا قبل ان تشير الى الحارس ان يأخذها الى العربة،اشتعلت النار في قلب الام وهي لا تعرف الى اين يأخذون ابنتها واخذت تصيح بلغتها ان يخبرها احد الى اين ستذهب ابنتها لكن لم يجبها احدبل ان ضربة من سوط احد الجنود اخرستها وجعلتها تجلس ارضا وهي تبكي فاقترب منها يمان الذي كان حزينل لأجلها وقال وهو يعلم انها لا تفهم شيئا مما يقول:
لقد ذهبت ابنتك الى قصر السلطان وهو افضل حالا من غيره نظرت المرأة في عينيه طويلا وكأنها توصيه ان ينتبه لابنتها ثم شخصت عيناها فجأة ومالت الى جانبها مفارقة الحياة

**********

كانت تقف في الحرملك بوهن فهي مريضة وتحتاج الى الراحة كما انها لم تتلق العلاج اللازم، اقتربت منها سورنا وقالت:
ماذا بك ايتها الفتاة؟
وبالطبع لم تفهم ما قالته فظلت صامتة فهي تعلم ان سورنا لن تفهمها ايضا ولكن الاخيرة صفعتها على وجهها بقوة ظنا منها انها تمتنع عن الكلام فسال خيط رفيع من الدماء من جانب فمها ثم سالت دموعها وهي تقول بلغتها:
اريد امي... اريد امي
دفعتها سورنا بيدها فسقطت على الارض ثم صرخت في احدى الخادمات ان تأخذها الى مخضع الجواري

ظلت تبكي حتى غلبها النوم،وفي الصباح الباكر استيقظت على صوت صياح شخص ما ولما فتحت عينيها وجدت سورنا تقف على رأسها وهي تقول بسخرية:
استيقظي يابنة العجم انت هنا في قصر السلطان ولي في بيتك
لم تفهم ماقالته تلك المرأة ولكنها توقعت ان تكون هنا لايقاظ الفتيات اللاتي تم سبيهن معها فنهضت واخذت تهندم الفراش الذي كانت تنام فوقه كما اعتادت ان تفعل في بيتها بروما فنال فعلها ذاك رضا سورنا رغم انها لم تصرح بذلك ثم خرجت الى حيث المكان الذي ستقوم فيه سورنا بتدريبهن على الرقص والغناء لامتاع السلطان،وبعد مضي اسبوعين من دخولها قصر السلطان كانت تقف عند نافذة الحرملك حين رأت يمان يمر من امامها فقالت بصوت مرتفع ولكن بلغتها:
انت
التفت يمان نحو مصدر الصوت فوجدها تنظر نحوه عبر نافذتها فأسرع نحوها وهو يسألها عن احوالها ولكن لا احد منهما يفهم ما يقوله الاخر لذا انتهى لقائهما دون ان يعلم احد بما يريده الاخر، كان يمان يريد الاطمئنان عليها فقد شغلت تفكيره منذ رآها اما هي فقد كانت تريد معرفة مكان امها ولكنها لم تستطع اخباره بذلك
بعد مرور شهرين كانت تجلس على فراشها ضامة ركبتيها الى صدرها تحدق بالفراغ امامها فاقترب يمان من النافذة وناداها بصوت خفيض ولكنها لم تنتبه له فأمسك بحجر صغير والقاه نحوها فاصطدم بإناء موضوع بالقرب منها فأصدر صوتا عاليا،نظرت نحو الاناء طويلا ثم دارت ببصرها في المكان فرأته يقف عند النافذة وعلى وجهه ابتسامة عذبة،اسرعت نحوه ولما اقتربت منه بادرها بالسؤال:
كيف حالك؟
حملقت فيه وقالت بدهشة:
تتحدث لغتي؟
قال مندفعا:
ـ تعلمتها لأجلك
ولما رأى الذهول جلي على وجهها اردف موضحا:
اقصد تعلمتها كي استطيع التواصل معك وافهم ما تريدينه
ابتسمت وقال بامتنان:
شكرا لك
ثم حل عليهما الصمت حتى قطع هذا الصمت قائلا:
هل تريدين الخروج من هذا المكان؟
فقالت مندفعة بلهفة:
بالطبع
ادخل يده القابضة على لفة قماشية من بين قضبان النافذة وقال:
ارتدي هذه الثياب لتمكني من الخروج وستجديننني امام القصر انتظرك
التقطت من اللفة وقامت بفتحها فوجدت فيها ثيابا تشبه ثياب الخادمات،نظرت نحوه وابتسمت برقة فقال:
انا في الخارج
ثم انصرف،ظلت تراقبه من النافذه حتى اختفى فأغلقت النافذة وشرعت في تبديل ثيابها

*******

خرجت من القصر متخفية في الثياب التي اعطاها اياها،نظرت حولها بحثا عنه فلم تعثر عليه، شعرت بالخوف والضياع فتساقطت بعض دموعها فجأة احست بيد توضع على كتفها فاستدارت للخلف وهي ترتعد خوفا فوجدته يقف خلفها مبتسما،ولكن سرعان ما تبددت هذه الابتسامة بعدما رأى دموعها فقال بقلق:
ماذا حدث؟
اجهشت بالبكاء وهي تجيبه:
بحثت عنك ولكني لم استطع العثور عليك فشعرت بالخوف
زم شفتيه ثم قال بأسف:
اعتذر منك،فلا يمكنني الظهور كثيرا امام القصر
صمتت قليلا ثم قالت:
اين سنذهب؟

تنهد بقوة قبل ان يقول:
تعالي معي
سارا سويا مبتعدين عن القصر فسألها اثناء ذلك:
هل تجيدين ركوب الخيل؟
هزت رأسها نفيا فابتسم وتابع:
هذا جيد
ثم تابعا سيرهما حتى وصلا الى حصان معقول في شجرة فقالت وهي تنظر نحو يمان الذي كان يداعب غرة الحصان بيده:
الى اين ستأخذني؟
نظر نحوها طويلا ثم قال:
الى حيث يمكنك التنفس بحرية
عبس وجهها واطلقت تنهيدة متألمة ثم قالت:
لن اتنفس بحرية حتى اعثر على امي
شعر بالاسى لأجلها فهي لا تعرف بموت امها،ابعد عينيه عنها حتى لا تكشفان ما يخفيه ثم قال وهو يمتطي ظهر الحصان:
هيا بنا
قالت وهي تحدق بيده الممدودة نحوها تنتظر يدها:
الى اين؟
ـ اخبرتك...الى حيث يمكنك التنفس بحرية
امسكت بيده فساعدها على امتطاء الحصان خلفه،تحرك الحصان فجأة فكادت ان تسقط من فوقه فأمسك بها ومنعها من السقوط فقامت بلف يديها حول خصره تتمسك به خشية ان تنزلق من جديد،لم تعرف لماذا شعرت بالالفة نحو يمان رغم انها لم تلتق به قبل ذلك اليوم الا مرتين وفي كل مرة لا يكون لقاءهما سوى لحظات قليلة
انطلق الحصان بهما وسط الكثير من البيوت حتى خرج الى منطقة مروج خضراء لم تر مثلها من قبل في كل روما ففغرت فاهها انبهارا بهذا الجمال حتى وصلا الى بحيرة واسعة تكثر حولها ازهار الياسمين فقالت بذهول:
ما هذا الجمال الساحر!
هبط عن الحصان ثم انزلها برفق وقال:
هنا يمكنك نسيان حياة الجواري والعيش كملكة
اخذت تركض بين زهور الياسمين وتتحسسها بيدها وهي تضحك في سرور كالاطفال بينما يمان يراقب ما تفعله وهو لا يقل عنها سعادة،التفتت نحوه فجأة فوجدته يحدق بها وعلى وجهه ابتسامة عذبة فاقتربت منه وقالت برقة:
شكرا لك
فقال دون ان يرفع بصره عنها:
ما اسمك؟
ـ اناستازيا
حاول تكرار اسمها ولكنه لم يفلح فقال وهو يحك مؤخرة رأسه:
هذا اسم يصعب علي تذكره
ثم تابع:
لابد وان اجد لك اسما سهلا استطيع النطق به
ضحكت برقة ثم قالت:
وما الاسم الذي تراه مناسبا لي؟
صمت مفكرا ثم قال باللغة العربية:
جميلة
اعادت الاسم خلفه بطريقة مضحكة ثم سألته عن معناه فقال:
هو اسم عربي يطلق على الاشياء الرائعة التي نحب النظر اليها
نظرت نحو الارض في خجل ثم رفعت عينها نحوه مرة اخرى وقالت:
وهل ينطق هكذا بالرومية والفارسية؟
اومأ برأسه نفيا ثم اردف:
يختلف نطقه من لغة الى اخرى ولكن جماله في نطقه بالعربية
فابتسمت وقالت:
لقد احببته
ثم اختفت ابتسامتها وتابعت بحزن:

هل تعرف الى اين اخذوا امي؟
نظر في عينيها فآلمه الحزن البادي فيهما،فخشي ان يخبرها بموت امها فقال وهو يقوس فمه لأسفل علامة الجهل:
لا اعرف فقد غادرت المعسكر بعد رحيلك ولا اعرف اين حلت اقدام البقية
ثم تابع لما رأى الدموع تترقرق في عينيها:
ولكني اعدك ان ابحث عنها
ابتسمت بمرارة وهي تمسح الدمعة التي انزلقت على وجنتها ثم قالت:
شكرا لك يا.....
- يمان...اسمي يمان
فقالت مستغربة:
وهل هو اسم عربي ايضا؟
اومأ ايجابا فتابعت:
وماذا يعني؟
أجابها:
له عدة معاني منها صاحب البركة ويطلق على من يستخدم يده اليمنى في كل شئ
ثم ضحك وتابع:
وأنا لا أستخدم يدي اليمنى أبداً
ضحكت بشدة فقال:
لابد وان نعود الان
- هل ستعيدني الى القصر
اجابها وقد بدا الحزن في نبرة صوته:
ليس امامي خيار اخر
اطلقت تنهيدة مريرة وهي تومئ له بالموافقة،عادا سيرا الى المكان الذي عقل به حصانه ثم امتطيا ظهره وعادا الى القصر

**********

هبطا من على صهوة الحصان فشكرته وهي تسير تجاه القصر فأخبرها ان تنتبه لنفسها،اومأت له ايجابا وهي تكمل طريقها ولكنها توقفت فجأة وقالت:
هل حقا ستبحث عن امي؟
ابتلع غصة تكونت في حلقه ثم قال بصوت مبحوح:
بالطبع
فابتسمت ثم قالت وهي تخفض بصرها نحو الارض:
هل سأراك مرة اخرى؟
بادلها الابتسامة ثم قال:
لا اعدك ولكني سأحاول
صمتت طويلا فهي لا تجد ما تقوله ولكنها كانت تستعذب قربه منها،
طرأ سؤال في عقلها فطرحته عليه:
هل يمكنك الدخول الى القصر في اي وقت
هز رأسه نفيا فتابعت باستنكار:
اذن كيف ولجت اليوم؟
ابتسم وهو يجيبها:
خلسة
ضحكت ثم لوحت بيدها وهي تولي مغادرة:
وداعا
ضحك هو الاخر وهو يلوح لها بيده مودعا ولكنه تذكر شئ فجأة فأوقفها:
جميلة

ورغم انه ناداها بهذا الاسم الذي لم تعتد كونه اسمها الا انها توقفت ثم استدارت نحوه فاقترب منها وسألها بتوجس وهو يراقب شفتيها اللتين يخشى ان تنطقان بما لا يحب سماعه:
هل ذهبت الى مخضع السلطان من قبل؟
اشارت له نفيا فتنفس الصعدا،ثم اخرج من اسفل حزامه قنينة صغيرة لا يتعدى حجمها اصبع اليد وتحوي داخلها سائلا اسود اللون ومدها اليها،فقالت وهي تلتقطها منه:
ما هذا؟
قال وهو ينظر باتجاه القنينة:
هذه خلاصة مجموعة من الاعشاب ان وضعت منها قطرة واحدة فوق ثيابك ستظل رائحتها كريهة لأسبوع كامل
فقالت باستنكار:
ولماذا اضع منها؟
ـ كي لا تقوم كبيرة الجواري باختيارك للذهاب الى مخضع السلطان
قبضت على القنينة براحتها ثم شكرته على مساعدته لها ثم تابعت طريقها باتجاه القصر
اما هو فلم يرحل حتى تأكد من وصولها القصر بسلام

*******

دلفت الى مخضع الجواري دون ان يلحظ احد ذلك ثم استلقت على فراشها بعد ان خلعت ثياب الخدم واستبدلتها بثيابها وقد علقت ابتسامة على شفتيها الرقيقتين كما لم تنمحي صورة يمان من رأسها ولم يغادر تفكيرها،ضحكت بنشوة حين تذكرت نظراته السعيدة نحوها وهي تركض بين زهور الياسمين وظلت على تلك الحالة حتى قطعت عليها تلك اللحظات،سورنا كبيرة الجواري التي قالت بحدة:
ما الذي يضحكك يابنة العجم؟...والاهم من هذا اين كنت؟
وكالعادة لم تفهم جميلة ما قالته تلك المرأة فلاذت بصمتها ثم قامت بمناداة احدى الفتيات:
ريحانة...
حضر الفتاة التي كان باديا عليها انها اكبر قليلا من جميلة وقالت بأدب:
امرك سيدتي
فتابعت سورنا بحدة اكبر:
احضري السوط
نظرت ريحانة نحو سورنا بأعين متسعة ثم قالت:
لماذا؟
ـ سأقوم بتأديبها لتتعلم كيف تتجاهلني حين احدثها
كانت جميلة تتابع حديثهم كالبلهاء اذ لم تكن تعلم من لغتهم الفارسية شئ فقالت ريحانة محاولة منع سورنا مما هي مقبلة عليه:
سيدة سورنا....انت تتحدثين بالفارسية،وهي تتحدث الرومية لذا لا تفهم ما تقولينه
صمتت سورنا ولم تعلق فقد ادركت خطأها ثم قالت وهي تهم بالمغادرة:
ابحثي عن احد ليعلمها الفارسية
تنفست ريحانة بارتياح ثم اومأت لها ايجابا،
خرجت كبيرة الجواري فقالت ريحانة وهي هم باللحاق بها:
اعلم انك لا تفهمين ما نقول ولكن انتبهي لنفسك
ثم خرجت
ورغم انها لم تفهم الحديث الدائر بينهما الا ان داخلها لم يكن مطمئنا
مرت الايام تباعا وكانت جميلة تعد الايام تنتظر مجيئه ولكن ذلك لم يحدث حتى انقضت ستة اشهر كاملة كانت خلالها تمكث امام النافذة لوقت طويل حتى فقد الامل في رؤيته مرة اخرى الى ان جاء يوم قامت فيه سورنا باختيار ستة من الجواري صغيرات السن وأمرتهن بالاغتسال والتزين بالحلي وارتداء اجمل الفساتين وذلك تمهيدا لتقديمهن للسلطان ليختار من بينهن من ستكون رفيقته لتلك الليلة، قامت جميع الفتيات بفعل ما امرتهن به كبيرة الجواري استعدادا للمثول امام السلطان اما جميلة فلم تكن تعرف ما يريدونه منها ولكن بعدما قامت احدى الجواري السابقات بتزيينها فهمت نية سورنا فذهبت حيث فراشها واخرجت من تحت وسادتها القنينة التي اعطاها اياها يمان ثم اخذت تراقب المكان من حولها تتأكد من خلو المكان حولها ثم قامت بفتح القنينة وهي تحاول الا تستنشق رائحتها النتنة ثم قامت بسكب القليل منها على راحتها وقامت بتمريرها على فستانها وكذا شعرها ثم خرجت الى حيث سورنا التي

امرتهن ان يسرن قبلها باتجاه مجلس السلطان ولكن سرعان ما لاحظت الرائحة التي ملأت المكان فأوقفتهن ثم سارت امامهن فعرفت ان جميلة هي مصدر تلك الرائحة ورغم ان سورنا لم تترك لفظا نابيا الا وسبتها به الا انها كانت سعيدة لأنها بعيدة عن مخضع السلطان،

*******

في اليوم التالي استيقظت جميلة على صوت شئ يتحطم فهبت من نومها فزعة وهي تنظر حولها بحثا عن مصدر الصوت فوجدت بالقرب من سريرها بقايا زجاج حدقت فيه قليلا ثم قالت بحدة:
من الوغد الذي فعل ذلك؟
سمعت صوتا جاء من ناحية النافذة يقول:
انا
خفق قلبها بشدة لدرجة انه كاد ان يخرج من صدرها،نظرت نحو النافذة بلهفة فوجدته يقف عندها مبتسما كما رأته عندها في المرة الماضية،اسرعت نحوه وبمجرد ان وقفت امامه قالت مندفعة:
اين كنت؟ لقد اقلقتني
تعجب من طريقتها فقال على الفور:
اعتذر منك ولكني لم اتمكن من المجئ الى المدينة منذ التقينا اخر مرة
فقالت وقد بدأت الدموع تتجمع في محجريها:
وهل هذا سبب كاف ليطول غيابك،لقد كدت اموت وانا انتظر مجيئك كل يوم حتى فقدت الامل في ذلك
حدق فيها مطولا وقد علت الدهشة قسمات وجهه ثم قال:
اعتذر منك مرة اخرى ولكن هذا امر ليس بيدي
شعرت بالخجل من انفعالها الزائد ولكن ما قالته لم يكن ادعاءا بل كان حقيقة فأخفضت بصرها لتهرب من نظراته فسمعته يقول:
هل استخدمت محتوى القنينة؟
رفعت عينها نحوه فوجدته ممتعض الوجه فأومأت برأسها ايجابا،فابتسم وقال:
هذا جيد
فقد ادرك انها لجأت الى ذلك الشئ حينما ارادوا اخذها الى مخضع السلطان
ثم تابع:
هل يمكنك الخروج اليوم؟
صمتت ولم ترد فقال بتوجس:
هل تعرض لك احد؟
هزت رأسها نفيا فتابع:
اذن ماذا بك؟ لم انت صامتة؟
سحب نفسا عميقا ثم قالت دون النظر اليه:
اخشى ان اعتاد وجودك فتغيب
لم تسمع صوته فظنت انه رحل ولكنها لما رفعت عينها نحو النافذة وجدته محملقا بها في ذهول
ظل هكذا لبعض الوقت ثم ادخل يده من بين قضبان النافذة ومدها نحوها ثم قال بابتسامة جميلة:
اعدك الا اغيب
ترددت في البداية ثم مدت يدها نحو يده لتصافحها ولكنه ابعد يده في اللحظة الاخيرة وقال بشئ من المزاح:
ولكن الموت لا قدرة لي عليه
اومأت له ايجابا وهي تبتسم فمد يده مرة اخرى وتصافحا ومنذ تلك اللحظة نشأ بينها حب لم يسبقهما اليه سوى قيس وليلى
وصلا الى البحيرة التي التقيا عندها في المرة السابقة بعدما استطاعت جميلة التسلل من القصر دون علم احد فقالت الاخيرة بمجرد جلوسهما على حافة البحيرة:
يمان.....
انتبه لعا فتابعت:
هلا علمتني الفارسية
سألعا عن السبب فقالت:
كثيرا ما تتحدث الي سورنا بحدة وانا لا افهم ما تقوله ابدا وهو الامر الذي يجعلها لا تكف عن الصراخ في وجهي وضربي

تبدلت تعابير وجهه الى الغضب لمجرد علمه بأن هناك من يقوم بأذيتها،فسألته بقلق:
عل انت بخير؟
اومأ تيجابا وهو يقول:
نعم
ثم تابع بحماس:
سيكون اليوم هو اول ايام تعليمك الفارسية
استغرق تعلم جميلة للغة الفارسية حوالي العامين حتى اتقنتها تماما،ليس لصعوبة واجهتها ولكن لقلة زيارات يمان لها
بعد مضي اربعة اعوام على لقاء جميلة ويمان جاء الاخير الى القصر بشكل رسمي بعدما تم ترقيته الى فارس فالتقت به صدفة في بهو القصر وبمجرد ان وقع بصرها عليه تسمرت في مكانها فقال موضحا لما رأى الخوف باديا على وجهها:
لا تقلقي،انا هنا بصفة رسمية
ولما لم يتغير حالها اردف:
لقد تمت ترقيتي الى رتبة اعلى وانا هنا بأمر من الوزير تقي الدين
ازدردت ريقها عدة مرات قبل ان تقول:
هل حقا ما تقوله ام ان امرنا قد كشف؟
ـ ولماذا اكذب عليك؟
فسألته بقلق:
ولماذا انت هنا؟
ـ الوزير تقي الدين ذاهب في زيارة الى نيسابور وسأكون ضمن الفرسان الموكلين بحراسته
ـ وكم ستغيب؟
سألته بتوجس فقال:
قد اغيب لشهرين
ابدت اعتراضها على ذلك ولكنه لم يكن من امر بقاءه او رحيله شئ فقالت وقد بدا الحزن في صوتها:
الا يمكنك الاعتذار عن هذه المهمة؟
قال مستنكرا:
كيف هذا يا جميلة؟....انا لا يمكنني الاعتذار عن امر املاه علي والدي والذي اعلم جيدا انه لن يؤذيني ابدا فما بالك بالسلطان الذي حياتي رهن اشارة من يده؟
كادت ان تقول شيئا ولكن خروج سورنا الى البهو في ذلك الوقت منعها فقالت الاخيرة بحدة موجهة كلامها لجميلة:
ماذا تفعلين هنا ايتها الجارية؟
ثم نظرت نحو يمان وتابعت:
ومن هذا الفارس؟
لم تعجب يمان الطريقة التي تحدثت بها كبيرة الجواري مع جميلة فأجابها نيابة عنها:
انا من اوقفها؟
ـ وما الذي تريده منها؟
صمت قليلا ثم قال:
اردت سؤالها عن شئ ولكني اكتشفت انها لا تعرف الفارسية
فقالت سورنا وهي ترمق جميلة بنظرة امتعاض:
انها فتاة حمقاء لا تتعلم ابدا
ولأن يمان لم يكن يحب سماع توبيخ جميلة بأذنيه لذا تركهما واكمل طريقه

********

كانت تجلس شاردة على حافة البحيرة حين سمعت صوت خطوات بالقرب منها فالتفتت نحو الصوت فوجدته يقف خلفها بوجه شاحب والدماء تنزف من عنقه بغزارة ثم سقط على الارض،صرخت وهي تركض نحوه حتى اذا ما اقتربت منه تفاجأت بالسكين في يدها وقد كان غارقا في الدماء،نظرت نحو يمان الملقى على الارض فوجدته ينظر نحوها ثم قال بوهن والدماء تخرج من جوفه:
لماذا يا جميلة؟
نهضت من فراشها وهي تصرخ،فهرعت اليها ريحانة وهي تقول في قلق:

اناستازيا ماذا بك؟
اخذت تصرخ بلغتها وهي تبكي كالمجنونة:
يمان في خطر.....يمان في خطر
لم تفهم ريحانه ما تقوله ابدا ولكنها قامت بضمها واخذت تواسيها وهي تقول بالفارسية:
لا تخافي لابد وانه كابوس مزعج وانتهى
لفت جميلة زراعيها حول ريحلنة وكأنها تخشى شيئا ما
كان قد مر على غياب يمان حوالي ثمانية اشهر وهو ما اخافها اذ انه كان قد اخبرها قبل رحيله انه لن يمكث في نيسابور اكثر من شهرين حتى ان الوزير الذي ذهب برفقتهم قد عاد بعد مضي اقل من شهرين اما هو لم يعد بعد
ظل هذا الكابوس يراودها في اليقظة والمنام فقررت ان تعرف تفسيرا لهذا الامر فذهبت ذات يوم الى ريحانة وقامت بسؤالها عن عرافة او احد يمكنه تأويل الاحلام فقالت الاخيرة بدهشة:
متى تعلمت الفارسية يا فتاة؟!
قالت جميلة دون ان تكترث لسؤالها:
ريحانة هل تعرفين احدا ام لا؟
اومأت لها ايجابا ومازال الذهول مسيطرا عليها ثم قالت:
ولكن كيف ستخرجين من القصر؟
قالت بضيق:
هذا لا يهمك
رفعت ريحانة حاجبيها لأعلى متعجبة ولكنها لم تعلق ثم اخبرتها عن عرافة تسكن في منطقة جبيلة على اطراف المدينة فانتظرت حتى انتصف الليل وخرجت من القصر رفقة ريحانة ثم ذهبتا الى تلك العرافة
طرقت ريحانة باب العرافة وانتظرتا قليلا قبل ان يفتح الباب وتطل منه فتاة في الثلاثين من العمر فقالت ريحانة:
مرحبا سيدة نرجس
ـ من انتما؟
القت ريحانة نظرة خاطفة نحو جميلة ثم قالت:
انا ريحانة،وهذه اختي،وهي تريد منك المساعدة في امر خاص بها
قهقهت العرافة نرجس عاليا ثم قالت بحدة وقد كادت مقلتيها ان تخرجان من مكانهما:
نرجس لا تفعل شيئا دون مقابل
فقالت ريحانة مستدركة:
اعرف ذلك جيدا سيدتي وقد احضرت معي ما تريدين
هدأ انفعال نرجس ثم قالت وهي تدلف الى داخل البيت:
اتبعاني
فلحقتا بها
كان البيت من الداخل عبارة عن ردهة صغيرة يتوسطها حوض صغير ملئ بالماء ومجموعة من المقاعد الارضية التي تشبه تلك المقاعد التي تكون في خيام البدو وغرفة ملحقة بها،دلفت نرجس الى تلك الحجرة وهما في عقبها حتى حلست على كرسي ضخم وقد كان موضوع حولها مجموعة من الجماجم والكثير من البخور،اشارت لهما ان تجلسا ففعلتا ثم قالت موجهة حديثها الى جميلة:
ما هي علتك يا فتاة؟
تبادلت ريحانة وجميلة النظرات ثم قالت الاخيرة وهي تنظر نحو العرافة:
حبيبي مختف منذ اشهر ولا اعرف عنه شئ
ثم تابعت بعد ان ابتلعت ريقها:
ولقد رأيت في منامي رؤية بشعة بشأنه ولقد تكررت هذه الرؤية مرات عديدة وهو الامر الذي اقلقني
ـ ماذا رأيت؟
سألتها نرجس فحكت لها الرؤية تفصيلا،صمتت الاخيرة وطال صمتها بشكل مقلق ثم اخذت تتمتم بكلمات غير مسموعة وهي مغمضة الاعين ثم فتحت عينيها عن اخرهما وقد كان شكلها مرعبا بشكل لا يوصف ثم قالت وهي تحدق بجميلة:
ما اسمه؟...وهل لديك شئ يخصه؟
ابتلعت ريقها بصعوبة ثم قالت بصوت مرتجف:
اسمه يمان،
ثم اخرجت من جعبتها سوارا ومدته نحوها وقالت:
هذا السوار له

اخذت منها السوار وقلبته بين يديها ثم اغمضت عينيها مرة اخرى واخذت تتمتم من جديد ثم نفضت رأسها فجأة،بعد لحظات فتحت عينيها وعلقت بصرها بجميلة وقد كان باديا عليها انها في حالة طبيعية ثم مدت راحتها نحوها دون النبس ببنت شفة،لم تفهم جميلة ما تعنيه تلك الحركة ولكن ريحانة فهمت ما تتعنيه واخرجت من بين طيات ثيابها كيسا قماشيا صغيرا واعطته لها،فتخت نرجس الكيس واخرجت منه قطعة ذهبية ثم قربتها من نار الشعلة التي تضئ الحجرة فجعل بريقها لعاب نرجس يسيل،اعادت القطعة الى داخل الكيس ثم قالت بهدوء:

فتاك في نيسابور يقاتل ضمن صفوف جيشها

ـ متى سيعود؟

سألتها بلهفة فقالت:

ـ عما قريب

فابتسمت وقالت وهي تهم بالنهوض:

شكرا لك سيدة نرجس

فأشارت الاخيرة لهما بالرحيل،وقبل ان تطأ اقدامهما خارج الحجرة سمعاها تقول:

مسكين

فالتفتت جميلة نحوها وقالت مستفسرة:

من؟

ـ فتاك... المسكين ستكون نهايته مأساوية

ثم تابعت وهي ترمقها بنظراتها:

سيموت على يد انسان لم يتوقع منه الغدر ابدا

خفق قلب جميلة بقوة وسقطت دموعها وكادت ان تستفسر اكثر ولكن ريحانه جذبتها من يدعا لترحلا فنرجس لا تحب الشخص كثير السؤال وقد تؤذيه بشدة

********

ظلت جميلة صامتة طوال طريق العودة الا من دموعها المنهمرة والتي بللت ثيابها حتى قالت ريحانة:

ليس صادقة فيما قالته؟

رمقتها جميلة بنظرة متسائلة فأردفت:

السحرة لا يعلمون الغيب...بإمكانها اخبارك بمكانه بسهولة وذلك لأنها ارسلت خلفه من يقتفي اثره اما ما سيحدث له فهذا امر تبالغ به

توقفت جميلة عن السير وقالت وهي تمسح دموعها:

لا افهم شيئا

فتوقفت ريحانة هي الاخرى عن السير واستدارت في مواجهتها وقالت:

لا يستطيع انسان في هذه الدنيا ان يعلم ما سيحدث ابدا،وان كانت قد اخبرتك بمكانه فهذا لأنها ارسلت احد خدامها من الجن فاقتفى اثره وعلم بمكانه ثم عاد واخبرها عنه وهي بدورها اخبرتك اما عن كونه متى سيعود او ماذا سيصيبه في المستقبل فهذا امر تتنبأ به فحسب وليس اكيدا

سألتها بتوجس:

هل هذا حقيقي ام انك تقولين هذا فقط لتهوني علي فحسب؟

ابتسمت ريحانة ثم قالت برفق:

ولماذا اكذب عليك يا اناستازيا

ـ جميلة

ـ ماذا قلت؟

ابتسمت جميلة وقالت:

هو من اسماني بهذا الاسم بعدما استصعب نطقة

لاحت ابتسامة ماكرة على شفتيها وقالت:

يمان.....

ثم تابعت وهي تتأبط زراعها:

اخبريني كيف تعرفت عليه

ضحكت برقة ثم اخذت تحكي لها القصة منذ التقت يمان قبل اربعة اعوام حتى وصلتا الى القصر وحين دلفتا الى مخضع الجواري امسكت جميلة بيد ريحانة وقالت بنبرة رجاء:

عديني الا يعلم احد عن علاقتي بيمان

عانقتها ريحانه بقوة ثم قالت:

وهل من المعقول ان افشي سر اختي؟!
بعد مضي ثلاثة اسابيع كانت سورنا تقوم بالقاء الاوامر على مسامع الجواري كعادتها حين دلف اليها احد الحراس ثم قال وهو يمد يده نحوها برسالة:
هذه لك سيدتي
التقطتها منه وهي تسأله عن الراسل فقال:
فارس جاء الى هنا وقال انها رسالة خاصة للسيدة سورنا
اشارت له ان ينصرف ثم فتحت الرسالة فاكتشفت انها مكتوبة بلغة غريبة لم تستطع قراءتها قط فقالت موجهة حديثها الى الجواري:
من منكن تستطيع قراءة هذه الرسالة؟
- انا.....
نظرت جميع الجواري نحو المتحدثة التي لم تكن الا جميلة والتي اردفت لما وجدتهن يحملقن فيها بذهول:
انا يمكنني قراءتها
فقال سورنا بدهشة:
تتحدثين الفارسية؟
اومأت لها ايجابا ثم اقتربت منها واخذت الرسالة ولما نظرت فيها وجدتها مكتوبة بلغتها ولم تجد بها سوى جملة واحدة (انتظرك بجوار البحيرة)
ظلت محملقة بالرسالة طويلا لا تصدق ما كتب بها، ثم نظرت نحو سورنا فوجدتها تحدق فيها بتعجب،فقالت الاخيرة باستنكار:
لماذا اصابك الذهول؟
ثم تابعت بحدة:
ما المكتوب بهذه الرسالة؟
رمقتها جميلة بنظرة تحد ثم امسك بالورقة ورفعتها في مستوى عينيها ثم قالت بصوت جهوري وكأنها تقرأ ما كتب بالرسالة:
حبيبتي سورنا اشتقت اليك،انتظرك في المكان نفسه
احمر وجه سورنا من شدة الحرج وهي ترى نظرات الجواري لها بدهشة وقد تبادلوا الهمسات بينهن فشعرت بالارض تميد بها وفي لحظة استطاعت تمالك نفسها صرخت فيهن بحدة:
اغربن عن وجهي
لم تتزحزح اي واحدة منهن من مكانها قيد انملة فتركتهن وتوجهت الى مخضعها
جلست جميلة على طرف فراشها وهي تعيد قراءة الرسالة مرات ومرات فاقتربت منها ريحانة وجلست الى جوارها ثم قالت وهي تقبض بيدها على يد جميلة الممسكة بالرسالة:
ما المكتوب بهذه الرسالة يا اناستازيا؟....ام اقول يا جميلة؟
قالت الاخيرة بضيق وهي تحاول سحب يدها بعيدا عن ريحانة:
أأنت صماء؟ ..لقد قرأت الرسالة امامكن جميعا
فقالت ريحانة وهي ترفع احد حاجبيها:
ان كن حمقاوات فأنا لست كذلك
- ماذا تقصدين؟
امسكت بوجهها ونظرت في عينيها ثم قالت وهي تبتسم بمكر:
اعرف من ارسل هذه الرسالة
بدا الاضطراب على وجه جميلة فتابعت:
فتاك هو من ارسلها....ولكن لسوء حظي لست افهم اللغة التي كتبها بها
ضحكت جميلة برقة وتوردت وجنتاها ثم قالت:
ينتظرني عند البحيرة
شهقت ريحانة وقالت:
هل عاد
اومأت لها ايجابا فقالت وهي تنظر نحو بقية الفتيات:
وكيف ستذهبين اليه؟
ابتسمت جميلة ثم نهضت وتوجهت نحو صندوق ثيابها الخاص واخرجت منه ثيابا مطوية ثم قالت وهي ترمق ريحانة بنظرة واثقة:
تعالي معي

**********

وصلت الفتاتان الى حديقة القصر وقد بدلت جميلة ثيابها وارتدت زي الخادمة ثم قالت وهي تهم بالرحيل:
عليك ان تغطي على غيابي حتى اعود
فابتسمت ريحانة وقالت:
كنت اتمنى رؤية ذلك المجنون الذي سلب عقلك وجعلك اكثر جنونا منه
فابتسمت جميلة وقالت:
سيحدث يوما ما
ثم تابعت طريقها بحذر حتى خرجت من القصر....
كانت تسير في الطريق ذاته الذي كانت تسير به رفقة يمان فتفاجأت بحصان معقول في احدي الاشجار،اقتربت منه فوجدت ورقة مطوية بين السرج وظهر الحصان،اخرجت تلك الورقة وفتحتها فوجدت بها جملة كتبت بلغتها وهي(اسرعي.. مازلت انتظر)
فابتسمت حتى ضاقت عيناها ثم امتطت ظهر الحصان وانطلقت به نحو البحيرة
وعند البحيرة وجدته واقفا ينظر في الاتجاه الذي تأتي منه فابتسم بمجرد ان وقع بصره عليها،اما هي فهبطت عن ظهر الحصان وانطلقت نحوه كالقذيفة حتى استقرت بين زراعيه ورغم ان لقاءهما كان خاليا من الكلمات الا ان نظراتهما والشوق البادي فيهما ابلغ من اي كلمات قد تقال في مثل هذه المواقف
ابعدها عنه قليلا ثم قال وهو ينظر في عينيها بحب:
اشتقت اليك
توردت وجنتاها خجلا فأخفضت بصرها هربا من عينيه ثم قالت بصوت اقرب للهمس:
وانا ايضا اشتقت اليك
ثم جلسا على حافة البحيرة فقالت جميلة بعد صمت:
اين كنت طوال هذه المدة؟.....الم تقل انك ستذهب الى نيسابور؟
يمان: ومن قال انني لم اكن هناك؟
فتابعت وقد دمعت عيناها:
ولماذا غبت كل تلك المدة؟
تنهد بضيق ثم اجابها وهو يحدق بالفراغ امامه:
كنا خمسين فارس متجهين الى نيسابور في موكب الوزير تقي الدين وحين جاء موعد عودتنا الى سمرقند ابقى على عشرين فارس منا للبقاء في نيسابور لتعلم بعض الفنون القتالية التي نجهلها في سمرقند وقد كنت احد هؤلاء الفرسان ولما سمح لنا بالعودة جئت اليك على الفور
نظر نحوها فوجدها تحدق به ووجها خال من اي تعبير فاستغل ذلك وقال مندفعا:
هل تقبلين الزواج بي؟
ابعدت عينها عنه ونظرت امامها دون ان تنطق بشئ فشعر انه تسرع في هذا الامر فقال:
اعتذر منك،يبدو انني تسرعت في فهم مشاعرك نحوي
ولما لم يصدر منها رد تابع:
ربما اكون في نظرك مجرد صديق ولكنك ان بحثت في كل انحاء هذا العالم لن تجدي انسانا يحبك بقدري انا
نظرت نحوه بذهول فاكمل مستطردا:
نعم يا جميلة،انا احبك منذ رأيتك اول مرة،وها أنذا انتظر اليوم الذي تكونين فيه زوجتي،اما وانك لا ترغبين في هذا فأنا لن اجبرك وسأكتفي بكوني صديق فقط
كانت جامدة كالتمثال وهي تحدق به ولكن كان هناك صوت في داخلها يقول:
ماذا يا جميلة؟ ماذا تنتظرين؟ هاهو فتاك قد عاد ويرغب في القرب منك بقية حياته،اليس هذا ما تريدينه؟ الست تريدين بقاءه امامك دوما؟ هاهو يحقق لك رغبتك فماذا تنتظرين بعد؟
فقالت:
وانا ايضا احبك ولكن
ـ ولكن ماذا؟
صمتت محاولة انتقاء كلماتها ثم قالت:
هلا اجلت الحديث في امر الزواج لوقت اخر؟
لم يفهم يمان سبب ذلك ولكنه اومأ ايجابا ثم لاذ بصمته حتى قالت بعد لحظات:
يجب ان اعود
نظر نحوها وفي داخله الكثير من التساؤلات التي لم يستطع طرح اي سؤال منها،ثم امتطى كل منهما ظهر حصانه وغادرا المكان

*********

عادت من شرودها بعدما لم تشأ تذكر شئ بعد ذلك فقد كثرت الخلافات بينها وبين يمان كما قلت لقاءاتهما بشكل كبير حتى جاء يوم واخبرها انه ذاهب الى بغداد برسالة من سلطان سمرقند الى سلطان بغداد وانتظارها لشهر ونصف الشهر حتى عاد الى سمرقند منذ يوم
نهضت من فراشها وهي تمسح دموعها التي اغرقت وجهها ثم اتجهت الى النافذة فرأته يسير نحوها وهو يراقب المكان حوله فالتقت عينه يعينها فقالت:
يمان
فقال بمجرد ان وقف امام النافذة:
رغم انك رحلت بالامس دون سبب الا انني لم استطع العودة الى المعسكر دون رؤيتك
ثم تسائل بقلق لما رأى اثر صفعة على وجهها:
ما هذا الذي على وجهك يا جميلة؟
وضع كفها على خدها بحركة تلقائية فتابع بغضب وهو يقبض على قضبان النافذة:
من الذي فعل بك هذا؟
عادت الى بكاءها فأعاد سؤاله وقد تملك الغضب منه فقالت بصوت منخفض:
سورنا
ـ ساعديني في الولوج الى مخضعها
نظرت اليه فوجدت عينيه محمرتان من شدة الغضب فقالت بقلق.:
لماذا؟
فقال وهو ينظر الى اثر الصفع على وجهها:
اريد اخبارها بشئ
حاولت اثناءه ولكنها لم تستطع ذلك قط
كانت سورنا في مخضعها تروح وتغدو وهي تتوعد جميلة بأن تكشفها امام السلطان حين فتح الباب ودلف منه يمان الذي كان يغطي وجهه بلثام لا يظهر سوى عينيه،انعقد ما بين حاجبيها وقالت بحدة:
من انت وكيف دخلت الى هنا؟
اشار لها ان تخفض صوتها ثم اقترب منها وهو يمسك بمقبض سيفه ثم اخرجه من غمده ووضعه اسفل نحرها فاتسعت عينيها في خوف،فقال وقد بدا الجد في نبرة صوته:
ان حدث وسمعت انك تعرضت لأناستازيا بألضرب او السب او بأي شكل من اشكال الاذى حينها اقسم لك اني سأجعل اكبر قطعة من جسدك لا تتعدى حجم انملة هل هذا واضح؟
هزت رأسها ايجابا فأنزل سيفه عن عنقها واعاده في غمده واستدار مغادرا ولكنه نظر نحوها فجأة وصفعها على وجهها بقوة اسالت الدماء من جانب فمها فصرخت ثم كممت فمها بيدها خوفا مما قديفعله بها فقال:
هذا فقط لتتذكري ما قلته
ثم فتح الباب وقبل ان يطأ بقدمه خارجها استدار نحوها واشار بسبابته في وجهها محذرا:
وتحذير اخر....اياك والتفكير في ارسالها الى مخضع السلطان
ثم رحل،ظلت تراقبه حتى اختفى عن انظارها،وفي اليوم التالي جاءت احدى الجواري الى سورنا تخبرها بأن جميلة ترفض الذهاب الى مخضع السلطان فوضع راحتها على موضع الصفعة التي صفعها اياها يمان بشكل تلقائي ثم قالت بشئ من الخوف وهي تسمع صدى صوت يمان يتردظ في اذنها:
دعيها وشأنها
ـ ولكن يا مولاتي
فصرخت فيها؛
نفذي ما قلته واختاري واحدة غيرها
*******
وصل يمان الى المعسكر والتقى پارسا الذي بمجرد ان رآه عانقه بحرارة ثم قال:
اهلا بالفارس المغوار يمان ابن ابراهيم
فقال الاخير مستنكرا:

هل تهزأ بي يا پارسا؟
فقال مدافعا:
حاشا لله ان اهزأ بك يا صديقي
ثم تابع مبتسما:
القائد ينتظرك منذ الامس
ذهب يمان الى القائد الذي تلقاه مبتسما وقال:
لماذا تأخرت في العودة الينا يا يمان؟
بادله يمان الابتسامة وقال:
تأخرت في الطريق الى سمرقند
فقال القائد وهو يربت على كتفه:
المهم انك عدت سالما
فشكره ثم استأذن للانصراف
عاد يمان الى حيث پارسا فسأله الاخير مبتسما:
هل ذهبت لرؤية جميلة؟
اومأ ايجابا دون ان يتكلم، لاحظ پارسا الضيق البادي على وجهه فسأله عن سببه فقال:
لقد سئمت يا پارسا،كلما فاتحتها في امر الزواج تتهرب منه وكأنها لا ترغب في ذلك
امسك پارسا بساعده وقال:
تهربت منك هذه المرة ايضا؟
هز يمان رأسه نفيا وقال موضحا:
لا لم اتحدث اليها هذه المرة فلقد بدأت اكره الحديث في هذا الامر
لم يجد پارسا ما يقوله فبقي صامتا
في تلك جاء اليهما احد الجنود وقال موجها حديثه الى يمان:
القائد يطلب حضورك في الحال

ذهب يمان الى القائد فأخبره ان يذهب الى قصر السلطان بشكل عاجل ولما سأله عن السبب اخبره انه لا يعرف سوى ان عليه الذهاب الى هناك
فعاد الى حيث پارسا واخبره عن رحيله ثم امتطى ظهر حصانه وعاد الى المدينة

********

سلطان بغداد لا ينوي خيرا ابدا
قالها السلطان شايان بتفكر وهو يجلس على عرشه وامامه يقف الوزير تقي الدين الذي قال:
ومالذي يراه مولاي السلطان؟
صمت السلطان مطولا ثم قال:
لابد وان نسبقه قبل ان نجد الرومان يملأون شوارع سمرقند وطرقاتها
فقال الوزير:
هل يقصد مولاي السلطان اننا سنهاجم بغداد
ابتسم السلطان وهو ينظر في عيني وزيره واردف:
هذا بالضبط ما سنفعله
ثم تابع:
ولكن علينا ارسال شخص يكون اداة الهاء لذلك السلطان قبل ان يقوم بجمع جيشه ويهاجمنا بمعاونة اولائك الرومان
ـ ومن هذا الشخص الذي يمكننا ارساله؟
طال صمت السلطان وهو يفكر في ذلك الشخص حتى وثب من مكانه فجأة وقال وهو يشير في وجه الوزير:
احضر لي الفارس الذي عاد من بغداد الان

دلف يمان الى قاعة السلطان ثم وقف امامه باحترام فقال الاخير وهو يقترب منه:

ما اسمك
رمقه يمان بنظرة خاطفة ثم قال:
يمان
انعقد ما بين حاجبي السلطان وقال مستغربا:
ما هذا الاسم الغريب؟
ـ انه اسم عربي يا مولاي
صمت السلطان قليلا ثم سار نحو عرشه وجلس عليه ثم قال:
ستذهب اليوم الى بغداد....لتنقل الى سلطانها رسالة شفهية منا
ثم اردف:
فأنت قلت انك تجيد العربية كالفارسية
اومأ يمان ايجابا فتابع:
لذا ستكون الاداة التي ستلهي ذلك السلطان المارق حتى نغير على بغداد
صعق يمان مما قاله السلطان شايان فقال طالبا التوضيح:
اعتذر منك مولاي السلطان ولكن ماذا تقصد بأن نغير على بغداد؟
ضحك السلطان ثم قال:
سلطان بغداد يتفق مع الرومان ضدنا،وفي الوقت نفسه يوهمنا انه في صفنا،لذا علينا ان نتعجل قبل ان نكون ضحية اتفاقهم
فقال يمان مستنكرا:
وما ذنب اهل بغداد في ذلك؟
رمقه السلطان بنظرة حادة ثم قال:
لكل حرب ضحاياها،وليكن اعل بغداد ضحايا حربهم معنا
ـ المهم ستذهب الى هناك وستخبر السلطان ان يتعجل في تجهيز الجيش الذي قال انه سيعده لمعاونتنا في الحرب ضد الرومان في الوقت الذي سنجهز فيه جيشا سيقوم بسحق بغداد بمن فيها
اومأ له ثم انصرف
..خرج يمان من عند السلطان وهويغلي ويثور كالبركان ثم امتطى صهوة حصانه وقال:
تصفه بالمارق وانت مثله ايها الحقير
ثم انطلق على الفور

*******

وصل يمان الى بغداد بعد مضي اسابيع على خروجه من سمرقند ثم دلف الى قصر السلطان
وقف امام السلطان مبديا احتراما كبيرا فأمر الاخير بإحضار الترجمان ليترجم له ما سيقوله ولكن يمان لم يمهله ونطق بالعربية:
لا حاجة لك به بإمكاني الحديث معك بلغتك
فقال السلطان بتعجب:
تستطيع التحدث بالعربية؟
ابتسم يمان بثقة ثم قال:
ولدت لأب فارسي وام عربية لذا اتحدث كلا اللغتين بطلاقة
صمت السلطان قليلا ثم سأله عن سبب عودته الى بغداد فأجابه:
لقد ارسلني السلطان شايان برسالة شفهية يخبركم فيها بسرعة اعداد الجيش الذي وعدتوه به
ـ لن نستطيع تجهيزه في مدة اقل من ثلاثة اشهر
فقال يمان وهو يرمق السلطان بنظرة ماكرة:
لا تماطل ايها السلطان فكلانا يعرف انك لن تعد جيشا اساسا.
هنا صاح فيه الوزير الذي كان يراقب الحديث في صمت:
كيف تجرؤ على الحديث هكذا مع السلطان اسماعيل بن داود ايها الفارسي الحقير؟
فقال يمان بنفاذ صبر:
اهدأ ايها الوزير وانتظر لتسمع بقية حديثي
اشار السلطان للوزير بأن يصمت ثم اخبر يمان ان يتابع حديثه فقال:

ما اخبرتكم به ما هو الا رسالة مزيفة اراد شايان ارسالها لكم لإلهائكم عما ينوي فعله
ـ وما الذي ينوي فعله ذلك المتغطرس؟
فابتسم وقال بثقة:
ان سمرقند في طريقها اليكم لمحي بغداد ومحي اثرها
فسحب الوزير سيف احد الحراس ثم صاح وهو يضعه على عنق يمان:
ما الذي تقوله ايها الوغد؟
فقال يمان بحدة وهو يحدق به بأعين تشتعلان غضبا:
ما اقوله هو ما ينوي شايان فعله بكم
نهض السلطان عن عرشه ثم قال بشك وهو يدنو منه:
ولماذا اصدق ما تقوله؟
ـ لأنه ليس امامك سوي هذا.....
ثم تابع:
جهز جيشك وانتظر
فقال السلطان وهو يشير في وجهه محذرا:
سأنتظر ذلك وفي الوقت نفسه لن اقوم بسجنك ولكني لن اسمح لك بمغادرة بغداد حتى اتأكد من صدق ما تقوله وإن عرفت انك كاذب حينها سأقوم بقطع رأسك امام اهل بغداد جميعا
فقال يمان مؤيدا:
وهو كذلك
ثم امره السلطان بالانصراف
بعدها اقترب الوزير من السلطان وقال بصوت منخفض:
مولاي....هل تصدق ما قاله هذا الشاب
صمت السلطان قليلا ثم قال:
لا اعرف،ولكني اظنه صادق
ثم تابع بحزم:
اختر مجموعة من الفرسان الاقوياء وارسلهم ليتأكدوا مما قاله
اومأ الوزير ايجابا ثم انصرف، بينما بقي السلطان في مكانه يروح ويغدو مفكرا في حل لهذا الامر

*******

خديجة
كانت تجلس على بساط ارضي في ردهة بيتها تقوم بحياكة بعض الثياب حين سمعت طرقا على باب بيتها فقالت منادية ابنتها:
سلمى....انظري من بالباب
فنهضت سلمي التي كانت فتاة شابة من جوار امها وتوجهت نحو الباب ثم عادت بعد لحظات وقالت:
امي هناك شخص بالباب لا اعرف ما الذي يريده
فقالت الام مستغربة:
الم تسأليه عما يريد؟
ـ بلى ولكنه لم يجبني....كأنه لم يفهم ما قلته
نهضت الام وسارت باتجاه الباب مع ابنتها وما ان وقفت امامه حتى وجدت امامها شاب يرتدي زي جيش ما وعلى وجهه ابتسامة عذبة فقالت وهي تراقبه من رأسه حتى اخمص قدميه:
من انت ايها الشاب؟
نطق الشاب بالفارسية وقال:
اعرف انها عشرين عام ولكن اليست الام تحن الى ابناءها وتشعر بقربهم منها
فاتسعت عينيها في ذهول وقالت غير مصدقة:
يمان؟!....
ضحك وقد دمعت عيناه ثم قال:

اشتقت اليك يا امي
فهرعت اليه وقد اغرقت دموعها وجهها ثم ضمته الى صدرها بقوة وهي تقول بلهفة :
الحمد لله الذي اقر عيني برؤيتك يا يمان
بقيا على ذلك الحال لوقت طويل حتى تنحنحت سلمى وقالت وهي تمسكت بكتف امها:
امي..... سيتجمع الناس
فابتعدت خديجة عن ولدها قليلا ثم دعته الى الداخل،بعد ان ولج الثلاثة الى البيت قامت الام بمعانقة ولدها من جديد واخذت في البكاء اكثر من شدة شوقها اليه فقالت سلمى:
امي من هذا الشاب؟ ولماذا يتحدث بلغة غريبة؟
نظرت خديجة نحو ابنتها وقالت:
انه ابني يا سلمى واخوك ايضا؟
فقالت الاخيرة بدهشة وقد ارتفع حاجبيها:
اخي؟!
ـ نعم يا سلمى انه يمان اخوك الاكبر
فقالت باستنكار:
منذ متى ولي اخ اكبر، انا لا اعرف سوى اخي حمزة والذي يصغرني بأعوام كما تعرفين
فقالت الام موضحة:
انه ابني من زوجي الفارسي
حدقت فيه سلمى للحظات قبل ان تقول وقد فهمت سر حديثه بتلك اللغة:
لهذا كان يتحدث بلغة غريبة
ـ ولكني يمكنني الحديث بالعربية يا اختاه
قالها يمان بالعربية فابتسمت الام بينهما فغرت الاخت فاها في ذهول
وبعد حديث طويل عرف يمان خلاله احوال امه واخوته الذين لم يكن يعلم عن وجودهم شئ قالت الاخت:
ما الذي ذكرك بأمك بعد كل هذه السنوات؟
لكزت الام ابنتها وهي ترمقها بنظرة حادة بينما ابتسم يمان وقال:
لم انساها يوما ولكن لم اجد فرصة لألتقي بها منذ طلاقها من ابي ورحيلها عن سمرقند،لذا اتيت اليها عند اول فرصة لاحت لي
ثم قال موجها حديثه لأمه:
امي اود اعلامك بشئ
انتبهت الام له فتابع:
لابد وان ترحلوا من بغداد
فصاحت فيه سلمى:
ما الذي تقوله يا هذا؟
رمقتها امها بنظرة جعلتها تبتلع بقية كلامها ثم قالت برفق:
لماذا تريد منا الرحيل يا بني؟
صمت قليلا ثم قال:
ان بغداد تتواطأ مع الرومان ضد سمرقند الامر الذي اشعل النار في صدر سلطانها فقرر المجئ بجيش قوي لسحق بغداد
ثم تابع وهو يمسك بكف امه:
وانا اخشى عليك ان يصيبك مكروه في هذه الحرب التي لا طائل منها
فصرخت فيه سلمى بحدة:
يا لوقاحتك.. تريد منا الرحيل لتسلبونا ارضنا ايها الوغد
فصفعتها امها على وجهها بقوة لسبها اخيها ولكن الاخير لم يقبل بذلك فقال وهو يبعد امه عنها:
امي ماالذي فعلته؟.....
ثم نظر نحو اخته وتابع معتذرا:
اعتذر منك لما حدث.
ثم توجه صوب باب البيت وهم مغادرا فأوقفته امه:
يمان انتظر
وقف في مكانه دون ان يلتفت نحوها فاقتربت منه ثم وقفت امامه وقالت بحزن:
الى اين يا بني؟
صمت قليلا ثم قال:

لابد وانا ارحل يا امي،فأنا قد اتيت لتحذيركم مما سيحدث وسأعود من حيث اتيت
في تلك اللحظة فتح الباب ودخل منه فتى في الخامسة عشرة من عمره فقال بمجرد ان وقع بصره على يمان:
من انت؟
ثم تابع لما رأى امه تمسك به وكأنها تمنعه من الخروج واخته التي تضع يدها على خدها وقد دمعت عيناها:
امي ماذا حدث؟ ومن هذا؟
امسكت الام بيده ثم جذبته نحو يمان وهي تقول بلهفة:
انه اخوك يا بني، اخوك يمان
لم تقل دهشة حمزة عن دهشة اخته سلمى في شئ حتى اردفت الام موضحة:
انه ابني من زوجي السابق والذي كان فارسيا من سمرقند
فابتسم في بذهول وقال:
هل يتحدث الفارسية؟
اجابه يمان وقد بادله الابتسامة:
والعربية ايضا
فأخذ يقفز في مكانه وهو يقول في سعادة:
لدي اخ اكبر....لدي اخ اكبر.
لم يتمالك يمان نفسه واخذ في الضحك من بساطة اخيه وطيبة قلبه حتى الام شاركت ولديها السعادة حينا رأت من احدهما قبول للاخر بينما تجهم وجه سلمى فمن هذا الغريب الذي ظهر في حياتهم فجأة والادهى انه بات يشترك معهم في حب امهم لهم فقالت وكأنها تعيره بما لا يمتلك:
قد تكون شاركتنا في امنا ايها الغريب، ولكنك لن تستطيع مشاركتنا في والدنا ابدا
فابتسم يمان وقال وهو ينظر في عينيها بتحد:
لا حاجة بي اليه انه والدكما اما انا فوالدي في سمرقند ينتظر عودتي اليه
فسألته امه بشئ من الخجل:
كيف حال والدك يا بني؟
ـ بخير والحمد لله
ثم تابع:
والان اسمحوا لي
فسألته امه:
الى اين؟
ـ سأبحث عن مكان امكث فيه حتى يسمح لي سلطان بغداد بمغادرة ارضه والعودة الى سمرقند
ـ بإمكانك البقاء هنا
نطق بها حمزة بشكل عفوي ولكن يمان رأى الرفض في عيني اخته والقلق باديا على وجه امه فاعتذر من اخيه بلباقة ثم ودع امه واخته التي اشاحت بوجهها بعيدا عنه ثم خرج من البيت،
لحقت الام بولدها واوقفته خارج البيت ثم قالت وقد بدأت الدموع تتجمع في عينيها:
لو كان الامر بيدي يا بني لأسكنتك قلبي ولكن ابا حمزة لن يقبل بوجودك هنا فهو يكره الفرس بشدة
ابتسم يمان ثم قبل جبين امه وقال:
لا عليك يا امي فأنا اتفهم ذلك
عانقته امه وقالت وقد اغرقت دموعها وجهها:
لا ترحل عن بغداد قبل ان تودعني
ابتعد عن امه قليلا ثم قال وهو يمسك بكفها:
سأفعل
ثم قبل يدها ورحل

*********

كان يسير في شوراع بغداد هائما لا يعلم له وجهة، كانت الشمس قد قاربت على المغيب فجلس بجانب احد البيوت يستريح قليلا فتناهى الى سمعه صوت الاذان فقال موبخا نفسه:
اللعنة عليك يا يمان ها قد اذن لصلاة المغرب وانت لم تصلي الظهر والعصر

ثم نهض وذهب الى المسجد الذي كان قريبا منه،صلى المغرب جماعه ثم قضى ما فاته،بعدها جلس في زاوية المسجد في صمت يراقب وجه الحاضرين فاقترب منه امام المسجد وجلس امامه،كان رجلا ستينيا ذا خلقة طيبة تشعرك بالالفة لمجرد رؤيته ثم قال وهو يبتسم:
قد يمنع الله عنك شئ تحبه اما لأنه يدخر لك الافضل او لأنه يرى ان فيه هلاك لك
فابتسم يمان وقال:
لا اعرف عن ماذا تتحدث ولكن مجرد رؤية وجهك ازاحت عن صدري هم كالجبل
ـ فارسي؟!
سأله الامام فانتبه انه تحدث بالفارسية فضحك واعاد ما قاله بالعربية، فقال الامام وهو ما زال محتفظا بابتسامته:
من انت؟ وماذا تعمل هنا في بغداد؟
حكى له يمان عن نفسه قليلا ودون قصد اخبره بالامر الذي جاء الى بغداد من اجله ثم سأله:
هل ما فعلته خاطئ؟
ابتسم الشيخ وقال:
بفعلك هذا قد ينجوا الكثيرين من هذه الحرب يابني
ثم قال وهو ينهض:
هيا لتصلي العشاء
نهض يمان هو الاخر ووقف في احد الصفوف لأداء الصلاة، ولما انتهى خرج من المسجد فوجد الامام يقف بالخارج فاقترب منه وسأله عن مكان يمكنه المبيت به حتى الصباح فعرض عليه الشيخ ان يذهب معه الى بيته، حاول الاعتراض ولكن الشيخ ابى ذلك واقسم ان يبيت ضيفه في بيته فابتسم يمان وقال:
كان من المفترض ان أعود إلى بلدي بعد انتهاء مهمتي أو أن يقوم السلطان بسجني ولكنه لم يسمح بهذا ولا ذاك وجعلني سجين بغداد حتى يتأكد مما قلته
فابتسم الشيخ وقال:
بيتي هو بيتك وضيافتك واجبة

وقف يمان والشيخ امام بيت يظهر عليه الثراء فقال الاخير مرحبا:
مرحبا بك في بيتي
نظر يمان نحو الشيخ متعجبا فقد كان يظن أن بيت الشيخ سيكون بيتا بسيطا ولكنه رأى نفسه امام قصر مهيب له بوابة كبيرة فأردف الشيخ مبتسما:
كوني امام المسجد لا يعني انني فقير
ثم فتح البوابة ودعا يمانا الى الدخول،
ولج يمان الى البيت فتسمر في مكانه منبهرا بجمال البيت الذي كان عبارة عن حديقة ضخمة ملأى بأشجار الفاكهة اليانعة بثمارها والتي تظهر اسفل ضوء المشاعل المنعكس عليها فضحك الشيخ وأشار له بأن يتابع طريقه،فسار خلفه على طريق معبد يصل الى باب البيت الرئيسي ثم اتجه به الى حجرة خارجية ملحقة بالبيت فتح الشيخ بابها ودلف اليها،ثم قام بإشعال سراج معلق في احد جدرانها،ثم خرج وقال مبتسما:
ستكون هذه الحجرة لك حتى يأذن الله لك بالعودة الى بلادك
فشكره على حسن ضيافته وقال:
شكرا لك ايها الشيخ الطيب، بعد عودتي الى سنرقند ان قدر الله لي زيارة بغداد فسوف يكون بيتك اول بيت تطأه قدمي
ابتسم الشيخ ثم تركه وتوجه إلى بيته فدلف يمان إلى الحجرة

**********

دلف الشيخ إلى بيته فالتقى بابنته كيان التي بمجرد أن وقع بصرها عليه حتى أسرعت إليه وهي تبتسم ثم قالت:
مرحباً بعودتك يا أبي
ربت الشيخ على وجه ابنته برفق ثم قال بابتسامة:
أهلاً بحبيبتي وحبة قلبي
بعد ذلك أمرها أن تعد طعاماً لضيفه فقالت متعجبة وقد انعقد حاجبيها:
أي ضيف هذا؟
أجابها وهو يتجه صوب غرفته:
شابٌ التقيته في المسجد بعد صلاة المغرب وليس له مكان يذهب إليه لذا استضفته

فابتسمت وقالت:
أوٍ يا أبي لوتتوقف عن تلك العادة
فزجرها قائلاً:
كفي عن هذا يا كيان وأسرعي فإنه من العيب أن ينتظر الضيف أكثر
فقالت وهي تهم بالذهاب:
أمرك يا أبي
ثم ذهبت لتعد طعاماً للضيف وبعد مضي ساعة ذهبت لتخبر والدها بأن يأخذه إليه فوجدته نائماً لذا اضطرت أن تأخذه ه
ولكنها ما كادت أن تطأ بقدمها خارج البيت حتى تذكرت أنها لا ترتدي حجابها فعادت وارتدته ثم خرجت.

كانت تسير باتجاه الحجرة وما إن وقفت أمام بابها حتى وصل إلى مسامعها صوت عذب لم تسمع مثله من قبل، كان قادماً من داخل الحجرة

يا جامع الشمل بعدما افترقا
قدر لعيني بمن أحب لقا
عافِ من السقم مبتلى بهوى
ما نفعت فيه معوذة ورقى

ظلت في مكانها تسمع حتى توقف الصوت عن قول المزيد فقامت بطرق الباب ليفتح بعد لحظات ويخرج منه يمان الذي ارتفع حاجباه في دهشة حين رأى أمامه فتاة يستحي البدر من جمالها وكأنها لؤلؤة مكنونة داخل حجابها ثم أخفض بصره لما انتبه لما حدث معه فقالت الفتاة بخجل وهي تمد يدها نحوه بالطعام:
مرحباً بضيفنا
فقال وهو يرفع عينه وينظر نحوها:
شكراً لكم
لاحظت الفتاة أن لهجته غريبة بعض الشئ فسألته:
هل أنت من بغداد؟
أومأ نفياً وقال:
سمرقند
فقالت وهي تهز رأسها متفهمة:
فارسي، لهذا لهجتك العربية غريبة
فابتسم وأردف موضحاً:
ربما لقلة استعمالي لها
ضحكت برقة فابتسم، ثم ظلا يتحدثان حتى اقترب الفجر فقالت بلهفة وهي تنظر باتجاه البيت:
أعتذر منك، يجب أن أعود إلى البيت قبل أن يستيقظ والدي
ثم هرولت باتجاه البيت يتبعها بعينه حتى اختفت عن أنظاره، فجلس أرضاً أمام باب الحجرة وقد شرد عقله بها إلى أن خرج الشيخ من بيته قاصداً المسجد، لأداء صلاة الفجر فتعجب لما رآه جالساً هكذا فقال:
لماذا تجلس هكذا؟
انتفض يمان حين سمع صوت الشيخ فلم يكن منتبهاً له ثم قال:
لم أكن أرغب في النوم لذا جلست هنا
ابتسم الشيخ ثم أخبره أنه سيذهب لصلاة الفجر فخرج معه وبعد الإنتهاء منها ودع يمان الشيخ وتوجه إلى قصر السلطان

وصل إلى قصر السلطان قبيل الظهيرة فقال الأخير بمجرد أن وقف يمان أمامه:
ما الذي تريده أيها الفارسي؟
فقال يمان وهو يرفع أحد حاجبيه:
بربك ما الذي سأريده منك؟
ثم تابع:
أريد الخروج من بغداد فلقد أنتهت مهمتي

كاد السلطان أن يقول شيئاً لولا دخول الحاجب في تلك اللحظة يخبره بعودة الفرسان الذين أرسلهم للاستطلاع فسمح بدخولهم على الفور
كانت وجوه الفرسان لا تنذر بخير أبداً فقال أحدهم بمجرد أن سمح له السلطان بالحديث:
جيش سمرقند على بعد ميل من أسوار بغداد
نظر السلطان نحو يمان نظرة ملؤها الغضب ثم صاح بحدة آمراً حراسه:
خذوه إلى السجن حتى نرسل رأسه هدية لشايان
فصرخ يمان بقوة:
ما أنت مقدم على فعله سيشعل نار الإنتقام في صدر شايان أيها السلطان وعندها لن تتمكنوا من إخمادها أبداً
فأشار السلطان للحراس أن يأخذوه ففعلوا

أما خارج أسوار بغداد وتحديداً حيث يعسكر جيش سمرقند كان السلطان شايان في خيمته مع مجموعة من مستشاريه وعلى رأسهم قائد الجيش ومجموعة من الفرسان من بينهم پارسا الذي كان قلقاً على صديقه فقال السلطان وهو يروح ويغدو أمامهم مفكراً:
لماذا لم يعد الرسول حتى الآن؟
فقال پارسا مندفعاً:
ربما يكون قد تم احتجازه، وربما الأسوأ
اختطف السلطان نظرة نحوه ثم قال بتفكير:
هل تقصد أنه قد يكون قتله؟
ازدرد پارسا ريقه ثم أومأ برأسه إيجاباً
فقال السلطان بحسم بعد تفكير:
سنهجم الآن

في وسط المدينة وفوق منصة الإعدام كان يمان جاثياً على ركبتيه وقد قيدت أطرافه، وإلى جواره يقف السياف منتظراً الأمر بتنفيذ الحكم،
كان يحدق بالأرض بمزيج من الذهول والخوف فما ذنبه ليكون كبش الفداء في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل ثم رفع بصره فجأة فالتقت عينه بعينها، كانت ترتدي رداءً أبيضاً رائعاً يعلوه حجاب من نفس لونه جعلها تبدو كالبدر ليلة التمام
انفرجت شفتاها بابتسامة رقيقة ثم سمعها تهمس قائلة:
إن الله لا يخيب عبداً دعاه
فابتسم ابتسامة عذبه تبعها بقوله:
يا رب
ثم أغمض عينيه وما هي إلا لحظات حتى سمع صهيل أحصنة وأصوات صياح وصراخ ففتح عينيه فرأى السياف الذي كان يقف إلى جواره جثة غارقة في دمائها ثم شعر بمن يفك قيده فالتفت نحوه فإذا به پارسا الذي قال وهو يبتسم بسعادة:
بسببك سيقوم شايان بإحراق بغداد كلها
ثم تابع لما رأى التساؤل على وجهه:
لقد توقع شايان أن يكون السلطان قد احتجزك عنده ولكن بعدما تأكد من محاولته قتلك فإنه لن يسكت عن هذا أبداً
انتهى پارسا من فك قيد صديقه فنهض الأخير ثم قال وهو يشير إلى الناس الذين يفرون هاربين للنجاة بحياتهم:
ما ذنب هؤلاء فيما يحدث؟
أحفض پارسا بصره في حزن ثم قال:
وما الذي يمكننا تقديمه لهم؟
فقال يمان بحدة:
يمكننا كف أذانا عنهم
ثم انطلق ركضاً فلحق به پارسا وهو يتسائل عن سبب ركضه فأردف:
لابد وأن أطمئن على أمي وإخوتي
ثم تابع:
ابق أنت هنا وحاول أن تغطي على غيابي
فتوقف پارسا عن الركض وهو يومئ موافقاً

*******

وفي قصر سلطان بغداد كان السلطان شايان يجلس فوق العرش بكل كبرياء بينما السلطان إسماعيل راكعاً أمامه في ذل ومهانة، فقال شايان:
ما هو شعورك الآن يا ابن داود؟
كان السلطان إسماعيل ينظر باتجاه الأرض في ذل وانكسار ولم يقم بالرد عليه ليس لأنه لا يستطيع ذلك ولكن لأنه لم يفهم ما قاله فتابع شايان غير آبهٍ به:
ألا يكفيك أنك تتعاون مع الروم ضدنا بل تتجرأ وتحاول قتل رسولي وأنت تعرف جيداً أن الرسل لا تقتل مهما حدث
ثم نهض من مكانه وأخذ يدنو منه ثم جثا على إحدى ركبتيه أمامه وقال:
سأترك لك تذكاراً يذكرك بي يا ابن داوود
ثم أمسك بخنجره وأحدث جرحاً عميقاً في وجه السلطان إسماعيل في تلك اللحظة رفع الأخير بصره ونظر صوب شايان يتطاير الشرر من عينيه فقال الأخير وهو ينظر في عينه بتحدٍ:
هذا لتتذكرني كلما نظرت في مرآتك يا ابن داود
ثم خرج من القاعة وهو يأمر جنوده للحاق به
كانت عينا إسماعيل ككتلة من اللهب وهو يتبع شايان بعينيه حتى اختفى عن أنظاره

**********

كان الطريق إلى بيت أم يمان يعج بالكثيرين ممن يريدون النجاة بحياتهم فاستطاع الوصول إلى هناك بأعجوبة.
طرق الباب بعنف ففتح وخرج منه رجل في العقد السادس من عمره فتسائل لما رأى يمان يقف أمامه والقلق بادٍ على وجهه:
من أنت؟
فأجابه يمان بأنفاس لاهثة:
يبدو أنك أبا حمزة، وأنا لا وقت لدي لأخبرك بمن أكون أو لماذا أنا هنا؟
ثم تابع بعد أن ابتلع ريقه:
هلا أخبرت السيدة خديجة أنني أريد رؤيتها؟
فصرخ فيه الرجل بحدة:
ما الذي تقوله أيها المجنون؟ تريد رؤية زوجتي
وعلى صوت صراخه خرجت أم يمان وكادت أن تتسائل عن سبب صياح زوجها ولكنها توقفت لما رأت يماناً يقف أمام الباب فقالت بقلق لما رأى ملامحه القلقة:
يمان بني، ماذا حدث؟
قال وهو يعانقها بفرح:
الحمد لله أنكِ بخير
فقال أبو حمزة وهو يبعده عنها:
من هذا الشاب يا خديجة؟
صمتت السيدة خديجة للحظات وهي تنقل بصرها بين زوجها وولدها ثم قالت بثقة:
ولدي
حملق بها أبو حمزة لبعض الوقت ثم قال بتوجس:
ولدكِ؟ كيف؟
أجابته وهي تنظر في عينيه:
إنه يمان ولدي الفارسي
على الرغم من أن أبو حمزة لم يكن يحب الفرس إلا أنه لم يكن ليمنع أماً من رؤية ولدها أو ابناً من رؤية أمه فدعاه إلى بيته وسط دهشة خديجة وابنتها سلمى التي خرجت بعد لحظات من خروج أمها ولكن يمان اعتذر عن هذا وأردف:
شكراً لك أيها العم فأنا على عجلة من أمري وقد أتيت لوداع أمي قبل عودتي إلى سمرقند
دمعت عينا خديجة حين علمت بهذا فتابع يمان وهو يقترب منها ويمسك بكفها:
سامحيني يا أمي ولكني يجب أن أعود
ثم انهال على كفها يقبله وقام بمعانقتها بعدما سقطت بعض دموعه ثم قال:
سآتي إليك مرة أخرى إن قدر الله لي العودة
ثم ابتعد عنها وقبل جبينها، ثم قام بمصافحة أبي حمزة وقال:

انتبه لأمي رجاءً
أومأ الرجل إيجاباً وقد تأثر لحال يمان وأمه فقام الأخير بمد كفه تجاه أخته ليصافحها ولكنها أشاحت بوجهها بعيداً عنه فتجهم وجهه وقال بحدة:
أتعلمين؟ أنت الإنسانة الوحيدة التي كنت أتمنى أن يقتلوها في هذا الحرب
ثم قبل كف أمه مرة أخرى وولى مغادراً تتبعه أمه بعينها حتى اختفى عن أنظارها
فظلت في مكانها تبكي بحرقة فاقترب منها زوجها ثم أخذ يربت على كتفها وهو يواسيها ببعض الكلمات

**********

كان عائداً إلى پارسا ولكنه وجد أقدامه تأخذه إلى بيت الشيخ فقد شعر بشئ في داخله يطلب منه الذهاب إلى هناك، ليس مجرد شكر الشيخ على استضافته له ولكنه أراد رؤية ابنة الشيخ التي سرقت لبه فجأة لما رآها تقف أمامه حين كانوا مقبلين على إعدامه
وصل إلى بيت الشيخ وكاد أن يطرق الباب ولكنه رآها تقف خلف نافذتها تترقرق الدموع في عينيها فتعلق بصره بها دون أن يتفوه بكلمة،
لم تكن منتبهة لوجوده ولكن ما إن وقع بصرها عليه حتى أسرعت بالخروج إليه ثم قالت بمجرد أن وقفت أمامه:
الحمد لله الذي نجاك
فافتغر فاهه وهو يحملق فيها بدهشة ثم سألها بتوجس:
هل كنت في الساحة قبل قليل؟
أومأت إيجاباً فقال بعدما شعر بالحرج مما يفعله:
أتيت لوداع الشيخ وشكره على ضيافته الكريمة
فقالت بشئ من الخوف:
أبي ليس موجوداً ولا أعرف ما إذا كان بخير أم لا؟
صمت قليلاً ثم قال:
لا تخافي سيكون بخير إن شاء الله
ثم تابع قبل أن يهم بالرحيل:
عندما يعود بفضل الله أبلغيه تحياتي واشكريه نيابة عني وأخبريه أن يمان لا ينسى من أحسن إليه يوماً
ثم ابتسم ورحل

*********

وصل الجيش إلى سمرقند بعد إعطاءه درساً قاسياً لسلطان بغداد وجعله يفكر ألف مرة قبل أن يتعاون مع أي عدو من أعدائه
افترق يمان وپارسا كل إلى بيته لرؤية أهله بعد هذا الغياب فوجد يمان والده يقف أمام البيت منتظراً عودته فتهللت أساريره وترقرت الدموع في عينيه حين رآه قد عاد إليه سالماً فأسرع يمان نحو والده ثم عانقه بشوق وهو يقول:
كيف حالك يا أبي؟
فقال الأب بفرح حقيقي:
الحمد لله الذي أعادك إليَّ سالماً يا بني
كان يمان غائباً عن والده منذ ما يزيد عن الشهرين، وبعد عناق طويل دلفا إلى البيت، فذهب يمان إلى حجرة لينال قسطاً من الراحة بينما بقي والده في ردهة البيت يتلوا بعض آيات القرءان فسمع طرقاً على الباب فاتجه إليه وفتحه فتفاجأ بفتاة تقف أمامه فانعقد ما بين حاجبيه وهو يسألها:
نعم تفضلي
فقالت الفتاة بعدما طال تحديقها به:
هل عاد يمان؟
تجهم وجه السيد إبراهيم حين سألته الفتاة عن ابنه ثم صاح منادياً إياه
جاء يمان ملبياً نداء والده فشهق عالياً بمجرد أن وقع بصره على الفتاة الواقفة أمامه والتي لم تكن إلا ريحانة إحدى جواري قصر السلطان وصديقة جميلة والتي كان يعرفها جيداً فقد رآها عدة مرات برفقتها فسأله والده بحدة وهو يرمقه بنظراته:
من هذه الفتاة يا ابن إبراهيم؟
كان التوتر جلي على وجه يمان وهو يحاول إيجاد كلمات يمكنه قولها فقال والده بحدة:

جِد كذبة مقنعة كي أصدقك يا ابن العرب
ثم تركه واتجه إلى حجرة فنظر يمان نحو ريحانة ثم قال بحدة:
ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟
فقالت:
لقد أرسلتني جميلة للسؤال عنك، وطلبت مني إخبارك أنها ستنتظرك عند البحيرة مع غروب الشمس
فقال وهو يتنهد بضيق:
أخبريها أنني سأذهب ولكني قد أتأخر قليلاً
أومأت ريحانة إيجاباً ثم ابتسمت وقالت قبل أن تتركه وتغادر:
إذهب إلى والدك وحاول كسب عفوه فلابد وأنه غاضب منك أيها المجنون
ثم رحلت فقال بحدة وهو يغلق باب البيت خلفها:
اللعنة عليكِ وعليها
ثم ذهب إلى والده

كان السيد إبراهيم يجلس على طرف فراشه والغضب بادٍ عليه فكيف تأتي فتاة يبدو عليها أنها ليست ذات خلق إلى بيته وتسأله عن ولده فطرق الأخير الباب ثم دلف إلى الحجرة دون أن ينتظر الإذن بالدخول
أشاح السيد إبراهيم بوجهه بعيداً عنه فاقترب منه ثم جثا أمامه وقال في خجل:
أبي
نهض السيد إبراهيم وهم بالخروج من الحجرة ولكن ولده اعترض طريقه وقال:
أرجوك يا أبي اسمع لي
وقف السيد إبراهيم وهو ينتظر من ولده توضيحاً لما حدث فقال يمان كاذباً بعد أن ازدرد ريقه:
تلك الفتاة التي كانت هنا منذ لحظات هي أخت زوجة پارسا
فقال السيد إبراهيم بحدة:
جِد كذبة غيرها فأنا أعرف پارسا وأعرف أنه ليس متزوجاً
فأردف:
لقد تزوج بها سراً لأن والده يرفض الأمر
رمقه والده بنظرة شكٍ وقال:
ولماذا جاءت لك الفتاة لتسأل عنك؟
صمت قليلاً ثم قال:
كي لا تسبب مشاكلة لپارسا مع والده
هز السيد إبراهيم رأسه متفهماً رغم عدم اقتناعه بالأمر ثم تركه وخرج قاصداً عمله فتنفس الصعداء

كان الوقت عصراً حين خرج السيد إبراهيم الذي كان عطاراً معروفاً في كل سمرقند والكثيرين من سكانها يترددون على عطارته فاستغل يمان هذا لعلمه أن والده لن يعود إلى البيت قبل صلاة العشاء فخرج من البيت قاصداً بيت پارسا وهناك أخبره والد پارسا أنه نائم فطلب منه إيقاظه
خرج پارسا إلى يمان بأعين ناعسة وهو يتسائل عن سبب قدومه إليه فقال:
لقد فعلتُ مصيبة وأريدك أن تساعدني للخروج منها
زفر پارسا أنفاسه بضيق ثم سأله:
وما هي تلك المصيبة؟
أخبره يمان بما حدث فصرخ فيه بحدة:
ما هذا الذي فعلته أيها الأحمق؟
ثم تابع:
ماذا إن التقى والدك بوالدي وأخبره بهذا؟
فأشار يمان نحوه بعينه وكأنه يقول:
عليك إيجاد حل حينها
ثم قال:
سأتركك لتتابع نومك فأنا لدي موعد
فقال پارسا وهو يمسح وجهه بكلتا يديه باستياء:
اللعنة عليك، وكأنني سأستطيع النوم بعد ما قلته

ثم تابع بضيق:
هيا ارحل من هنا
فابتسم له يمان ثم رحل
بقي پارسا في مكانه يفكر ثم دلف إلى البيت وخرج منه بعد لحظات قاصداً عطارة السيد إبراهيم

عاد يمان إلى البيت وأحضر حصانه ثم امتطى صهوته وانطلق باتجاه البحيرة
كانت تجلس على حافة البحيرة تنظر باتجاهها فالتفتت للخلف حين تناهى إلى سمعها صوت صهيل حصان فوجدت يمان يقترب منها وهو على صهوة حصانه فتهللت أساريرها وهي تنظر نحوه وما إن هبط عن حصانه حتى أسرعت نحوه وارتمت بين ذراعيه وبعد مرور وقت وهما على نفس الحالة اتجها نحو البحيرة وجلسا عند حافتها وأخذا يتحدثان كل واحد منهما يعبر عن شوقه للآخر
ثم سألها:
ألم يحن الوقت بعد؟
فقالت متعجبة:
أي وقت؟
صمت قليلاً ثم قال:
الزواج
بدا التوتر على وجهها ثم قالت بتلعثم وهي تتهرب من نظراته:
أليس الوقت باكراً؟
فزفر أنفاسه بقوة وقال:
منذ ما يقرب على الخمسة أعوام وأنا أطلب منكِ هذا
ثم تابع بحدة:
إن لم تكوني ترغبين في هذا فأخبريني لأكف نفسي عن تكرار هذا الأمر
صمتت قليلاً ثم قالت:
بالطبع أرغب في هذا ولكن....
فقاطعها وقد اتعست عيناه:
ولكن ماذا؟
أخذت نفساً عميقاً لتتمكن من متابعة حديثها ثم قالت:
ما الذي تمتلكه يا يمان كي أتزوج بك؟
صعق يمان فلم يكن يتوقع أنها قد تكون تفكر بتلك الطريقة بينما تابعت:
أريد أن يكون زوجي ثرياً يمتلك من السلطة والنفوذ ما يجعل العالم يخشاه
فقال وقد تملك الغضب منه:
قد لا أمتلك هذا كله ولكني أمتلك قلباً يحبكِ
ـ هذا لا يكفي، لماذا لا تكون كالوزير تقي الدين أو حتى كالسلطان شايان أو لماذا لا تكون السلطان نفسه؟
فنهض من جوارها وصرخ فيها بحدة:
إن كنتِ تريدين الجاه والسلطان فأمامكِ السلطان إذهبي وتزوجي به
ثم تركها واتجه صوب حصانه ثم امتطى صهوته ورحل

**********

وقف يمان أمام عطارة والده ثم دلف إلى الداخل فتفاجأ بپارسا موجوداً مع والده في ذلك الوقت وقد كانا يتحدثان سوياً ثم توقفا عن الحديث بمجرد أن وقع بصرهما عليه فتسائل السيد إبراهيم بقلق وهو يرى وجه ولده متجهماً:
يمان؟ هل أنت بخير يا بني؟
فقال وهو يمسح بكفه على وجهه:
بخير يا أبي لا تهتم
ثم نظر نحو پارسا وسأله عن سبب وجوده هناك فقال الأخير بعد أن اختطف نظرة نحو السيد إبراهيم:
جئت أسأل العم إبراهيم عنك
لم يصدق يمان ما يقوله پارسا فلابد وأنه جاء إلى والده ليتحدث إليه بشأن تلك الكذبة التي أقحمه بها فلم يعلق ثم بعد لحظات سمعوا صوت المؤذن يؤذن لصلاة العشاء فقال السيد إبراهيم أنه سيذهب إلى المسجد فأخبره يمان أنه سيلحق به بعد قليل وبمجرد أن خروج والده قال وهو يرمق صديقة بنظرة شك:

فيم كنتما تتحدثان؟ ولماذا سكتما فور دخولي؟
نظر پارسا نحوه بطرف عينه ثم قال بحدة:
لأطلب منه ألا يأتي بذكر المصيبة التي أخبرته بها أمام والدي كي لا يغضب مني
ثم تابع بقلق:
دعك من هذا الآن وأخبرني لماذا تبدو مهموماً هكذا؟
تنهمد يمان باستياء وقال:
لقد انتهى كل شئ يا صديقي
ثم قص عليه ما دار بينه وبين جميلة من حديث فقال پارسا وقد بدا حزيناً لما حدث معه ثم قال بغضب:
تلك الجارية لا تستحق ما فعلته لأجلها
ثم تابع مبتسماً وهو يربت على كتفه:
غداً سيعوضك الله بمن تستحق قلبك يا صديقي
بادله يمان الإبتسامة وقد شعر بالارتياح بعد أن أخرج ما في قلبه لصديقه فأجمل شئ في الحياة صديق بمجرد الحديث معه تنزاح كل همومك عن صدرك
ثم خرجا سوياً ليلحقا بالسيد إبراهيم

**********

كانت في مخضع الجواري شاردة وصدى صوت يمان يتكرر في أذنها:
ـ إن كنتِ تريدين الجاه والسلطان فأمامكِ السلطان إذهبي وتزوجي به
ـ إن كنتِ تريدين الجاه والسلطان فأمامكِ السلطان إذهبي وتزوجي به
فلمعت عيناها بشدة ثم خرجت من الحرملك

كان السلطان شايان في طريقه إلى مخضعه حين خرجت جميلة في طريقه فجأة واصطدمت به فسقطت أرضاً وهي تمسك بقدمها وتتأوه بشدة فهرع إليها وقال:
هل أنتِ بخير؟
لم تجبه ولكنها اكتفت بنظرة خاطفة نحوه جعلته يتجمد مذهولاً فرغم مرور الكثيرات عليه ممن يمتلكن جمالاً يسرق الألباب إلا أنه لم يلتق بمن هي أجمل منها أبداً فازدرد ريقه ثم قال لما رأى دموعها تنزلق على وجنتيها:
هل تأذيتِ كثيراً يا مولاتي؟
لاحت ابتسامة ماكرة على شفتيها أخفتها بسرعة قبل أن يلحظها ثم قالت:
قدمي تؤلمني بشدة، لابد وأنا قد كسرت
فصاح في حراسه أن يحضروا الطبيب فوراً، ثم حملها وتوجه بها إلى مخضعه
قام بوضعها على فراشه ثم مسح عنها دموعها وقال:
لا داعي للبكاء سيأتي الطبيب الآن
بعد لحظات طرق الطبيب الباب فسمح له السلطان بالدخول ثم أمره بفحص قدمها جيداً، وبعدما انتهى الطبيب من فحصه قال:
لا يوجد أي كسر مولاي السلطان، مجرد التواء في الكاحل
فقال الأخير بقلق:
ومتى سيطيب؟
تعجب الطبيب من نبرة السلطان وقال:
يجب عليها ألا تدوس على قدمها لعشرة أيام على الأقل كي لا يتأذى
أومأ السلطان برأسه متفهما ثم قال:
بإمكانك الإنصراف
خرج الطبيب من محضع السلطان فنظر الأخير نحو جميلة فوجدها تهم بالنهوض من الفراش فقال وهو يمنعها من الإقبال على هذا:
توقفي يا مولاتي، ألم تسمعي ما قاله الطبيب؟
فقالت وهي تخفض بصرها:
بلى سمعته وسأذهب إلى الحرملك كي أرتاح هناك
فرفض وقال:
بل ستبقين هنا وأنا بنفسي من سيقوم برعايتكِ حتى يطيب قدمك.، أو لستُ أنا المتسبب فيما حدث لكِ؟
فقالت بنبرة هادئة وبخجل مصطنع:

العفو منك مولاي السلطان
فابتسم ثم جلس إلى جوارها وسألها:
منذ متى وأنت هنا في القصر؟
نظرت بطرف عينها وكأنها تتذكر ثم قالت:
منذ ما يربو على السبع سنوات
فشهق وقال غير مصدق:
منذ أكثر من سبع سنوات ولم أراك من قبل؟!
فقالت بحزن:
هذا بسبب السيدة سورنا كبيرة جواري القصر فقد كانت تتجاهل وجودي وكثيراً ما كانت تقوم بضربي
فتجهم وجه السلطان وظهر الغضب على وجهه ثم خرج من مخضعه وعاد بعد لحظات وهو يحمل سوطاً ثم بعد قليل من الوقت جاءت سورنا كبيرة الجواري ثم انحنت أمام السلطان وقال بأدب:
احترامي مولاي السلطان
فوقع بصرها على جميلة فقالت بحدة وهي ترمقها بنظراتها الغاضبة:
ماذا تفعلين هنا أيتها الجارية؟
فصفعها السلطان على وجهها صفعة قوية جعلتها تصرخ، ثم قال بغضب:
كيف تجرؤين وتتحدثي معها بهذه الطريقة أيتها العاهرة؟
علت الدهشة ملامحها وهي ترى السلطان غاضب لأجلها، فأمرها بأن تجثو أرضاً ثم دنا من جميلة وقام بمساعدتها على النهوض ثم قربها من سورنا وهو يقف إلى جوارها ثم قال وهو يمد يده نحوها بالسوط:
هيا
تصنعت عدم الفهم وسألته:
ماذا؟
فابتسم وقال:
لتثأري منها
رفعت عينها ونظرت نحوه بخوف مصطنع فأومأ برأسه يطمئنها فأمسك بالسوط بأيدٍ مرتعشة ثم ضربت به سورنا ضربة خفيفة جداً لدرجة أنها لم تشعر بها فقال السلطان وهو يأخذ السوط منها:
الجلد لا يكون بهذه الرقة يا مولاتي ولكن يكون هكذا
ثم رفع السوط لأعلى وهوى به على جسد سورنا بكل ما أوتي من قوة فصرخت صرخة زلزلت جدران القصر ثم أعاده إليها وقال:
هيا فلتريني قوتكِ
فسحبت نفساً عميقاً ثم قامت بجلدها بقوة حتى أصاب الوهن ساعديها فأخذ السلطان السوط منها ثم قال بابتسامة:
يكفي هذا لليوم
ثم أمر سورنا التي لم تكن تستطيع التحرك بالإنصراف
نهضت سورنا بصعوبة ثم سارت باتجاه الباب تجر أقدامها جراً حتى خرجت وقام الحارس بإغلاق الباب بعد ذلك
فقام السلطان بمساعدة جميلة بالتمدد فوق الفراش مرة أخرى وجلس على طرفه بجوارها ثم قال:
ما اسمك يا مولاتي؟
صمتت قليلاً فلم تعرف بأي اسميها تخبره باسمها الحقيقي أم بالإسم الذي اسماها به يمان ثم قالت:
شارولیت
ابتسم السلطان وقال:
اسم جميل
ثم سألها عن عمرها فقالت:
أربعة وعشرون
ثم ظلا يتحثان حتى غلبها النوم فنهض السلطان واستلقى فوق الأريكة وغاب في النوم هو الآخر

وفي الصباح كانت جميلة تجلس فوق الفراش وهي تنظر نحو السلطان الذي يغط في النوم فوق الأريكة وقد لاحت على شفتيها ابتسامة ماكرة ثم قالت هامسة:
ابتلعت الطعم أيها الأحمق، غداً سوف يكون قصرك بمن فيه وسلطنتك هذه في قبضتي
في تلك اللحظة استيقظ السلطان وارتفع حاجباه في دهشة حين رآها تنظر نحوه وقد افتر ثغرها بابتسامة رقيقة ساحرة ثم قال مبتسماً:
كيف يعرف المرء إن كانت الشمس قد أشرقت أم لا بعد رؤيته لهذه الإبتسامة
فوارت وجهها بيديها بعدما شعرت بالخجل فدنا منها ثم جلس بالقرب منها وقال وهو يبعد يديها عن وجهها:

كيف حال قدمكِ الآن يا مولاتي؟
فقال بصوت منخفض بالكاد وصل إلى مسامعه:
بخير شكراً لك
ثم حاولت النهوض عن الفراش فقال بشكلٍ حازم وهو يمنعها:
قلتها بالأمس وسأقولها اليوم، لن تغادري هذا المكان حتى تطيب قدمكِ بشكل نهائي
فابتسمت
انتهت الأيام العشرة التي أخبر بها الطبيب وأصبح بمقدور جميلة السير على قدمها بشكل طبيعي رغم أنها لم تكن تشتكي من شئ منذ البداية، فحزن السلطان حين أرادت مغادرة مخضعه فقد تعلق بها لدرجة أنه مستعد لفعل أي شئ كي تبقى معه وهذا ما كان تريده كانت تهم بالخروج ولكنها توقفت وقالت وهي تنظر في عينيه:
هل ترغب في بقائي بالقرب منكَ مولاي السلطان؟
أومأ إيجاباً وهو يقول بلهفة:
بالطبع
فقالت باندفاع:
تزوجني وأعلنّي سلطانة وعندها سأكون معك لآخر العمر
فارتفع حاجبا السلطان في دهشة ولكن سرعان ما تهللت أساريره ثم قال وهو يضمها إلى صدره:
هذا ما سيحدث

**********

كان يمان في معسكره يقوم بأداء بعض التدريبات وبعد الانتهاء منها جلس إلى جوار پارسا ومجموعة من الفرسان والجنووأخذوا يتحدثون حتى جاء إليهما أحد الجنود وقد كان يدعى رامين ثم قال بلهفة:
هل سمعتم آخر خبر؟
نظر الجميع نحوه متأهبين فتابع:
سيتزوج السلطان
فقال يمان ساخراً:
وأخيراً سيفعلها هذا العازب البائس
ضحك الجميع على تعليقه فتابع:
لابد وأنه سيتزوج من ابنة أحد سلاطين أو أمراء البلاد الأخرى فهؤلاء الناس لا يتزوجون بمن هم في مثل حالنا
فقال رامين نافياً:
بالعكس فهو سوف يتزوج بإحدى جواري قصره
دق ناقوس الخطر في رأس يمان فقال بتوجس:
من تكون تلك الجارية؟
قوس رامين فمه لأسفل علامة الجهل ثم قال:
لا أعرف ولكني سمعت أنها فتاة غير فارسية تدعى شارولیت
امتقع وجه يمان حين سمع اسمها ثم نهض من جوارهم ووقف بعيداً كي لا يلحظ أحد هذا فلحق به پارسا فوجد الحزن منطبع على وجهه فسأله:
لماذا حزنت؟ أنت تعرف أن هذا هو ما تريده
فقال يمان وقد بدا الحزن في نبرة صوته:
لم أكن أتخيل أنها قد تتخلى عنّي هكذا
وضع پارسا كفه فوق كتفه ثم قال:
أنت من جعل لها قيمة يا صديقي، لقد تعلمت لغتها وساعدتها على عيش حياة أخرى غير حياة الجواري وفي النهاية باعتك بلا ثمن
ثم تابع:
حاول نسيانها يا صديقي فهي ليست سوى جارية وستبقى هكذا حتى وإن توجت ملكة على كل ممالك الأرض.
نظر يمان نحو صديقه فربت الأخير على كتفه ثم عانقه،
سقطت دمعة من عين يمان فلم يكن يتخيل أنه سيهون هكذا أو أن قلبه سيكون ضحية للطمع، ثم مسح دمعته قبل أن يراها صديقه.

*********

تزوج السلطان شايان سلطان سمرقند من شارولیت ابنة الروم وأعلنها سلطانة أمام كل أهل سمرقند بعد أسبوعين من اعلانه أمر زواجه

كانت النار تتأجج في صدر يمان وهو يسمع أصوات الإحتفال بزفاف تلك التي غدرت به وبحبه
كان يجلس فوق فراشه في حجرته وحيداً يزرف دموع الحسرة على قلبه الذي غدا شهيداً بعدما لم يظفر بحبه،
سمع طرقاً على باب الحجرة فقام بمسح دموعه وسمح لوالده بالدخول فقد كان يعرف أنه هو الطارق
دلف السيد إبراهيم واقترب من ولده ثم قال برفق:
ماذا بك يا بني؟ لماذا تختلي بنفسك هكذا؟
لم يكن يمان ممن يجيدون التعبير عن حالٍ غير الحال التي يكون عليها فلم يقل شيئاً ولكن عبرة سقطت من عينه جعلت والده يضمه إلى صدره وهو يقول بحنان:
لا تحزن يا بني فهي لا تستحق حبك لها أبداً
ابتعد يمان عن والده وقد كانت الدهشة مرسومة على وجهه فأردف:
هل كنت تظن أنني صدقت أن تلك الفتاة التي جاءت إلى البيت للسؤال عنك تكون أخت زوجة پارسا
ثم تابع لما أخفض يمان بصره في خجل:
لقد جاء پارسا إليَّ وأخبرني بالحقيقة التي أخفيتها أنت عني فقال يمان وقد أخذت دموعه في الهطول:
سامحني يا أبي
ربت السيد إبراهيم على كتف ولده برفق ثم قال:
سامحك الله يا بني
ثم تابع:
هيا انهض وصلِ لله ركعتين فهو الرؤوف الرحيم عساه أن يريح قلبك ويزيح همك
فأومأ إيجاباً ثم توضأ وصلى وأخذ يدعو الله أن يخفف عنه ما هو فيه حتى غفا في مكانه ولم يستيقظ سوى على يد والده وهو يوقظه ليذهبا للمسجد لأداء صلاة الفجر
وبعد الإنتهاء منها عاد السيد إبراهيم إلى البيت بينما بقي يمان يجوب شوارع المدينة حتى علت الشمس فرآها فجأة تسير أمامه على استحياء فأسرع خلفها ثم قال:
كيف حالك يا ابنة الشيخ؟
التفتت نحوه فوجدها فتاة لا يعرفها فقال معتذراً:
آسف، لقد ظننتك فتاة أخرى
رمقته الفتاة بنظرة حادة ثم تابعت طريقها دون النبس ببنت شفة فقال معاتباً نفسه:
ما الذي أصابك يا ابن إبراهيم؟ بالأمس كنت تبكي على تلك الخائنة واليوم تتوهم وجود ابنة الشيخ أمامك
فقد كان يظن أن تلك الفتاة التي رآها تسير أمامه هي ابنة الشيخ الذي استضافه في بغداد
عاد إلى بيته ودلف إلى حجرته على الفور وما هي إلا لحظات حتى جاء پارسا ليطمئن عليه فقال يمان:
ذهبت إلى حانوت والدي لتطلب منه إخفاء الأمر عن والدك أم تخبره عن علاقتي بتلك ال....
صمت بعدما لم يطاوعه لسانه أن يأتِ بذكرها بأي لفظ سئ
فقال پارسا موضحاً:
أقسم لك أني لم أذهب إليه لأخبره بهذا ولكنه لم يصدق ما أخبرته أنت به وكذلك لم يصدقني حين طلبت منه أن يخفي الأمر عن والدي فوجدتني كالأبله أخبره بالحقيقة.
فتنهد بقوة ثم لاحت ابتسامة على شفتيه وهو يحدق بالفراغ أمامه فرفع پارسا زاوية فمه لأعلى ثم قال مستنكراً:
وما هذا؟
نظر يمان نحوه فتابع:
يبدو أنك ستفقد عقلك عما قريب
ضحك عالياً ثم أخبره بما حدث معه قبل عودته إلى البيت وتطرق في حديثه عن ابنة الشيخ وعن أخلاقها ولما انتهى وجد پارسا ينظر نحوه وقد ارتفع حاجباه لأعلى فقال متعجباً:
پارسا، هل أنت بخير؟
فقال پارسا:
بالأمس كنت حزيناً على فراق تلك الجارية واليوم تتحدث عن فتاة أخرى؟

ثم تسائل وهو يدور برأسه حوله كمن يبحث عن شئ ما:
ألا يوجد سكين هنا؟
ـ لماذا؟
سأله يمان مستغرباً فصرخ فيه پارسا بحدة وهو يمسك بتلابيبه:
لأخرج قلبك وأنظر ما إن كان يعمل أم لا؟
ضحك يمان فقال پارسا وهو يتركه ويتجه صوب باب الحجرة:
سأرحل قبل أن أرتكب جريمة
بقي يمان في مكانه يضحك لردة فعل صديقه حتى دمعت عينه من كثرة الضحك.

**********

بعد مضي شهر أخبر يمان پارسا عن رغبته في الزواج من ابنة الشيخ التي لا يعرف اسمها حتى تلك اللحظة فقال الأخير معترضاً:
أنا أرفض هذا
ـ لماذا؟
فقال پارسا وهو ينظر في عينه بتحدٍ:
لأنني لا أقبل أن يدفع شخص ثمن خطأ شخصٍ آخر
ثم تابع:
أنت تريد الزواج بتلك الفتاة لتنسى هذه الجارية
فقال يمان بحدة:
لماذا تخلط بين الأمور يا پارسا؟
فقال الأخير بحدة:
أنا لا أخلط بين الأمور ولكن هذا ما سيحدث يا يمان
ثم تابع برفق:
أخشى أن تظلمها وتظلم نفسك يا صديقي
فقال يمان وهو يربت فوق كتفه:
لا تقلق يا صديقي فلقد نسيت تلك الجارية ولم يعد يذكرني بها أي شئ
قوس پارسا فمه لأسفل ولم يقل شيئاً
لم يخبر يمان والده عن رغبته في الزواج من ابنة الشيخ في ذلك الوقت حتى لا فسوف يأخذ عنه نفس الفكرة التي أخذها پارسا حتى انقضى عام كامل فقام بإخباره بأنه يرغب في الزواج
فابتسم السيد إبراهيم وقال:
لابد وأنك لاحظت أنك تخطيت الثلاثين من عمرك فرغبت في الزواج الآن
ثم تابع:
ومن تعيسة الحظ؟
ضحك يمان وهو يقول:
سامحك الله يا أبي، هل أنا سئ لهذا الحد؟
فربت والده على كتفه وقال:
هيا أخبرني
صمت يمان قليلاً ثم قال:
فتاة استضافني والدها حين كنت في بغداد قبل أكثر من عام
فقال والده باستنكار:
عربية؟!
أومأ يمان إيجاباً وهو يتعجب من ردة فعل والده فقال الأخير بحدة رافضاً هذا الأمر:
لن يحدث هذا أبداً
ـ لماذا؟
فصرخ والده في وجهه فجأة:
لتتزوج منها ثم تتركها بعد عدة أعوام لأنها لا ترغب في البقاء في سمرقند كان السيد إبراهيم يخشى أن يحدث مع ولده ما حدث معه
فقال يمان محاولاً إقناع والده:

لكل إنسان قدره يا أبي والأقدار ليست متشابهة
صمت السيد إبراهيم بعدما قاله ولده ولم يقل شيئا ليس لأنه اقتنع بما قاله ولكن حتى لا يخسره إن بقي رافضاً ثم قال بعدما طال صمته:
ما دمت تريد هذا فأنا موافق
فتهللت أساريره بفرح ثم عانقه وهو يشكره على تفهمه
بعد ذلك خرج لملاقاة پارسا لإخباره بالأمر ففرح الأخير بشدة ثم سأله إن كان سيذهب إلى بغداد فأومأ نفياً وأردف:
سأرسل إليه وأخبره عما أريده وإن قبل سأذهب إلى هناك
فقال پارسا:
توكل على الله
فكتب يمان رسالة وأرسلها مع أحد التجار المسافرين إلى بغداد

*********

كان الشيخ وابنته كيان يتناولان غدائهما قبيل العصر حين سمعا من يطرق باب البيت، فنهضت كيان وقالت:
سأذهب لأرى
فتحت باب البيت فوجدت أمامها رجلاً يبدو من ثيابه أنه ليس من العرب فسألته عما يريده فقال:
هل هذا بيت إمام المسجد الكبير؟
أومأت كيان إيجاباً فقال:
معي رسالة له فهلا أخبرته كي أسلمه إياها
عادت كيان إلى داخل البيت وأخبرت والدها بأمر الطارق فخرج لرؤية الرجل وسأله عن تلك الرسالة فمدها الرجل نحوه وقال:
أرسلها لك شاب من سمرقند يدعى يمان ابن إبراهيم
أخذ الشيخ الرسالة منه ثم شكره وعاد إلى الداخل فسألته ابنته:
ممن الرسالة يا أبي؟
أجابها وهو يحدق بالرسالة التي بيده:
رسالة من سمرقند
خفق قلب كيان حين علمت بهذا بينما تابع:
أرسلها شخص يدعى يمان
فشعرت بتوازنها يختل وكادت أن تسقط أرضاً فهي منذ رأته قبل عام وقد انشغل عقلها وكل كيانها به لدرجة أنها كانت تدعو الله في كل صلاة أن تراه مرة أخرى، فسمعت والدها يقول:
ترى من يكون هذا الشخص؟
فقالت مندفعة:
إنه رسول سمرقند الذي استضفته قبل عام
صمت الشيخ محاولاً تذكره ثم قال:
لقد تذكرته
ثم سأل ابنته وهو يرمقها بنظرة شك:
كيف عرفتِ أنه هو؟ هل التقيت به من قبل؟
توردت وجنتاها خجلاً فأخفضت بصرها وقالت:
حين طلبت مني إعداد طعام للضيف جئت إليك كي تأخذه إليه فوجدتك نائماً فلم أشأ إزعاجك وأخذته أنا إليه، وفي اليوم التالي حين هجم جيش سمرقند على بغداد جاء إلى هنا وسأل عنك ولما أخبرته أنك لم تعد بعد طلب مني أن أشكرك نيابة عنه أخبرني أن يمان لا ينسى من ساعده يوماً
ابتسم الشيخ بمكر ثم قال:
مر عام كامل ولا زالت كيان الجميلة تذكر اسم الضيف
لم تستطع كيان أن تواري خجلها أكثر فهرولت إلى غرفتها
فضحك والدها ثم فض الرسالة وقرأها
( السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كيف حالك أيها الشيخ الطيب؟ أعرف أنك قد تتسائل من أكون؟ لذا سأخبرك

هل تذكر الشاب الفارسي الذي استضفته في بيتك قبل عام؟ أنا هو ذلك الشاب واقد أرسلت لك هذه الرسالة لأخبرك أنني رأيت في بيتك زهرة بيضاء قبل عام، فإن كانت لا تزال في مكانها فهلا تكرمت عليّ وأعطيتها لي لتملأ حياتي بعبيرها وتكون أنيسة لي في الدنيا وفي الآخرة )
حملق الشيخ بالرسالة لبعض الوقت فقد فهم معناها ثم ذهب إلى ابنته

********

كانت في غرفتها تجوب المكان جيئة وذهاباً وقد علقت ابتسامة رقيقة على شفتيها كلما تذكرته
في تلك اللحظة طرق والدها الباب فحاولت جاهدة أن تواري ابتسامتها ثم فتحت الباب فوجدت والدها يقف خلفه وعلى وجهه ابتسامة عذبة فسألته عن سر ابتسامته فقال:
يطلب الزواج منك
شعرت بالأرض تميد وبالحرارة تجري في أوصالها فلم تكن تتخيل أنه قد يأتي يوم يطلبها فيه زوجة له لتنعم بقربه لبقية حياتها
انتبه من شرودها على صوت والدها وهو يسألها عن رأيها فابتسمت في خجل وقالت بصوت منخفض:
افعل ما تراه صائباً يا أبي
فابتسم والدها ثم قام بإرسال رده إليه والذي لم يكن سوى عبارة واحدة وهي( الخير فيما اختاره الله)
تهللت أسارير يمان فور بلوغه رد الشيخ وقام بإخبار والده بهذا ففرح لأجله ثم ذهبا إلى بغداد وتقدم لها بشكل رسمي وتم الزواج في غضون شهرين

*********

كانت تجلس في الحرملك بين الجواري يتحدثن سوياً فرغم قسوة قلبها إلا أنها كانت متواضعة مع من كنَّ رفيقاتها يوماً كن يتحدثن في أمور شتى حين دلفت إليها وصيفتها الخاصة ريحانة والتي قالت بمجرد أن جلست إلى جوارها:
لن تصدقي يا مولاتي بمن التقيت حين ذهبت لأحضر لكِ تلك العشبة التي كنتِ تريدينها
ـ من؟
سألتها جميلة بغير اكتراث فقالت:
يمان
خفق قلب حميلة لدى سماعها اسمه واضطربت ملامحها بينما تابعت ريحانة وهي تبتسم:
بدا مختلفاً بعدما تزوج
ارتفع حاجباها لأعلى واتسعت عيناها في دهشة ثم قالت غير مصدقة:
مستحيل
ثم نهضت واتجهت إلى مخضعها وما هي إلا لحظاتحتى خرجت مرتدية ثياب الخدم وخرجت من القصر

**********

بعد زواجه ترك الجيش والتحق للعمل بعطارة والده، وفي أحد الأيام التي كان فيها هناك سمع صوتاً من خلفه يقول:
كيف حالك أيها الفارس؟
كان ممسكاً بوعاء زجاجي فسقط من يده وتحطم فلم يكن يتخيل أنه سيسمع صوتها مرة أخرى بعد غياب دام لأكثر من عام ثم قال بعدما تمالك نفسه:
لم أعد فارساً
ـ ولكنك ستظل هكذا دوماً
فاستدار إليها فوجدها تقف أمامه كما رآها أول مرة بعدما تم أخذها إلى قصر السلطان فابتسم وكأنها ذكرته بأجمل ذكرى مرت عليه ولكنه سرعان ما تدارك نفسه وأخفى ابتسامته فقالت بتهكم:
لا زلت أشغل عقلك يا يمان
ثم ضربته بقبضتها في صدره وتابعت:
لا زلت أسكن وحدي هنا
أشاح بوجهه بعيداً عنها ثم قال:
كان هذا في الماضي، ولكن الآن لا يوجد أحد هنا سوى زوجتي
فقالت بغيظ:

أنت تكذب وإلا لما أشحت بوجهك بعيداً كي لا أرى حبك لي ينبع من عينيك
زفر أنفاسه بضيق فقد كانت محقة ثم قال:
ماذا تريدين مني؟
ترقرقت الدموع في عينيها ثم قالت بنبرة يشوبها بعض البكاء:
لماذا تزوجت يا يمان؟
ارتفع حاجباه بدهشة ثم قال:
هذا أمر يخصني ولا شأن لكِ به
فقالت وقد علا صوتها بشكل ملحوظ:
بل يخصني
ثم تابعت:
لماذا تزوجت بفتاة غيري يا يمان؟
فصرخ فيها بعدما أفلت زمام غضبه:
كم مرة أخبرتكِ برغبتي في الزواج منكِ وكنتي تتهربين مني
فصرخت هي الأخرى وقد أجهشت بالبكاء:
لو كنت تمسكت بي في ذلك الوقت أقسم لك أني كنت سأبقى معك ولكنك تركتني ورحلت دون أن تحاول مرة أخرى
فاستدار وانحنى ليلتقط بقايا الوعاء الزجاجي المحطم وهو يقول:
أنا لم أفعل، وأنتِ لم تتراجعي لذا لا فائدة من هذا الحديث الآن
ثم تابع متهكماً:
هيا عودي إلى قصركِ أيتها السلطانة قبل أن يعرف السلطان بخروجكِ فهو مهما قربكِ منه فلن تكوني في نظره سوى جارية
القى بنظرة خاطفة نحوها ليرى أثر ما قاله عليها فوجد الدموع تترقرق داخل عينيها العسليتين فشعر بخنجر ينغرس في صدره فهو لا يحب أن يراها حزينة ولكنها كانت تستحق هذا فلماذا تريده أن يسير على هواها وهي من تركته ورحلت؟
استطاعت بصعوبة أن تتمالك نفسها أمامه وألا تظهر ضعفها وشوقها له ثم رفعت هامتها وهي تسحب نفساً عميقاً ثم رمقته بنظرة متوعدة وتركته ورحلت
كان يتبعها بعينيه حتى اختفت عن أنظاره فعاد ينظر أمامه نحو الزجاج المحطم وقد ضهر مزيج من الضيق والغضب على وجهه
كان منشغلاً بها لدرجة أنه لم يشعر بقطعة الزجاج التي اخترقت يده إثر قبضته القوية عليها وفي تلك اللحظة دلف والده إلى العطارة ثم هرع نحوه لما رأى الدماء تقطر من يده وصاح وهو يمسك بيده المصابة:
يمان، ماذا حدث؟
انتبه الأخير له ونظر نحو يده فتفاجأ بجرح عميق في باطن يده والدماء تنزف منه بغزارة فرفع عينه ونظر نحو والده فوجد القلق ينبثق من عينيه فقاا ليطمئنه:
أنا بخير يا أبي
ثم تابع بعد صمت:
هلا سمحت لي بالذهاب إلى البيت فأنا أشعر ببعض الإرهاق
أومأ له والده بالموافقة فرحل على الفور

وصل إلى البيت فوجد زوجته تجلس فوق الأريكة الموجودة في ردهة البيت فألقى التحية بشكل مقتضب ثم دلف إلى حجرته دون أن ينبس ببنت شفة
شعرت كيان بالقلق لدى رؤيتها له متجهم الوجه هكذا فهي لم تراه بهذه الحال طول الخمسة أشهر التي قضتها في بيته فقد كان مرحاً بطبعه
شعرت بالقلق عليه فلحقت به فوجدته يجلس على طرف الفراش شارداً كادت أن تسأله عن سبب حزنه ولكن بمجرد أن وقع بصرها على يده شهقت عالياً وهي تهرع نحوه:
يمان ماذا حدث ليدك؟
أمسكت بيده فسحبها من يدها سريعاً شعرت بالألم لما حدث فهو منذ زواجه بها وهو عازف عنها ولا يتسطيع تقبلها فقد صدق پارسا هو أراد الزواج منها كي ينسى جميلة ولكنه لم يستطع لدرجة أنه كان كل ليلة يتسلل من البيت ويذهب إلى قصر السلطان، كان يقف بالقرب منه عل عينه تلمح طرفها ولكن ذلك لم يحدث أبداً
لما رأى الدموع تترقرق داخل عينيها البريئتين شعر بالشفقة عليها فهو سبب كل ما هي فيه الآن فقال وهو يمد يده نحوها سامحاً لها أن تفحصها:
أعتذر

خرجت للحظات ثم عادت تحمل وعاءً به بعض الماء وخرقة نظيفة ثم قامت بغسل يده وتضميدها فلاحظ دمعة عالقة بأهدابها فشعر بالألم ثم قال:
أنا آسف سامحيني
مسحت دمعتها بيدها دون أن تعلق ثم نهضت لتخرج من الحجرة ولكنها استدارت ونظرت نحوه ثم سألته:
لماذا تزوجت بي؟
رفع عينه لينظر نحوها فالتقت عينه بعينها فشعر بالخجل من نفسه ولم يقل شيئاً بينما تابعت:
ما دمت لا ترغب بي، لماذا تزوجت مني؟
وكأنها صفعته على وجهه بكلماتها فقال بعدما لم يجد شيئاً يقوله:
إنه القدر يا كيان، القدر الذي لا يمكننا مخالفته أبداً
صمتت قليلاً ثم قالت بحزن وقد أخذت دموعها في الإنهمار:
القدر إذاً؟
ثم تابعت بحزم:
أريد العودة إلى بغداد
نظر في عينيها لبعض الوقت ثم قال:
سأعيدكِ
شعرت به يمزق قلبها لما وافق على إعادتها دون أي محاولة منه للتمسك بها فهرولت خارجة من الحجرة وهي تبكي
استلقى على ظهره فوق الفراش وما هي إلا لحظات حتى شعر بجدران البيت تطبق على صدره وتكاد أن تخنقه فخرج من البيت وذهب إلى الشخص الوحيد الذي يمكنه التخفيف عنه في مثل هذا الوقت، پارسا

ـ ماذا بك؟
سأله پارسا بضيق وكأنه اعتاد على حاله هذا فقال:
لقد كنت محقاً يا صديقي
فقال پارسا بغرور مصطنع:
لطالما كنتُ محقاً يا يمان وأنت المخطئ دوماً
ثم تابع بنفاذ صبر:
ماذا فعلت هذه المرة؟
صمت قليلاً وهو يحدق بپارسا ثم قال:
سأرسل كيان إلى بغداد
فقال پارسا مستنكراً:
ألهذا تبدو حزيناً؟
فتابع متجاهلاً سؤاله:
بعد أن أطلقها
ـ ماذا تقول أيها الأحمق المجنون؟
صرخ بها پارسا في وجهه ثم تابع:
لم تمض سوى خمسة أشهر على زواجك بها
فقال بعد صمت:
هي من تريد هذا
ـ لابد أنك فعلت شيئاً أحزنها
ثم تسائل بعد لحظات وقد بدأ يشك في تعامل يمان مع زوجته:
هل تتعامل معها كزوجة؟
أومأ يمان نفياً فقال پارسا من تحت أسنانه:
لهذا هي تريد الرحيل، فلماذا تبقى في بيتك وأنت عازف عنها
فأمسك يمان بكفه ثم قال موضحاً:
أقسم لك أنني حاولت ولكني كلما نظرت إليها شعرت بروحي تنتزع من بين جنبيَّ،
زفر پارسا أنفاسه بضيق ثم سأله:
تشعر أنك تخون حبك أليس كذلك؟
لم يجبه يمان واكتفى بأن أشاح بوجهه بعيداً عنه بينما تابع:
ولكنك لا تشعر بالذنب لأنك المتسبب في ألمها

ثم استطرد:
هل والدك على علم بهذا؟
قوس فمه لأسفل علامة الجهل وقال:
لا أظنها أخبرته بشئ كهذا، فلو حدث لكان تحدث إلى
صمت پارسا ولم يعلق فقال يمان بعد صمت:
لقد رأيتها اليوم
نظر پارسا نحوه فتابع:
جاءت إلي لتعاتبني على زواجي بأخرى
ـ وما شأنها بهذا؟
سأله پارسا مستغرباً فأردف بابتسامة غريبة:
لا ترغب في الزواج مني وفي الوقت نفسه لا تريد لغيرها أن تحظى بي
فقال پارسا متفهماً:
لا زالت تحبك لذا تشعر أنك ملكٌ لها
قوس فمه لأسفل علامة الجهل ثم قال:
ربما

**********

عاد إلى البيت بعد منتصف الليل فوجد والده قد نام وزوجته قابعة في حجرتها وصوت بكاءها يصل إلى مسامعه فشعر بالندم جلس فوق الأريكة يفكر في حل لهذا الأمر ولكن صوت بكاءها منعه من ذلك فنهض وتوجه إليها ثم طرق على الباب ففتحته بعد لحظات
كانت جفونها متورمة من أثر البكاء فقال بعدما أحس بالحزن لأجلها:
أما اكتفيت من البكاء يا كيان؟
وكأن كلماته كانت المفتاح الذي فتح مدامع عينيها فعبس وجهها وعاودت البكاء وهي تهرول إلى الداخل
دلف خلفها ثم أغلق الباب خلفه حتى لا تصل أصواتهما إلى مسامع والده
جلست على طرف الفراش وقد أخذت تذرف الدموع في مشهد مؤلم فاقترب منها وحاول إرضاءها ببضع كلمات خرجت منه بصعوبة فقالت:
لا تكلف نفسك عناء ما تقوله، فأنا أعلم أنك تقول هذا بلسانك فقط
شعر بالحرج فجلس إلى جوارها ثم أحاط.كتفيها بذراعه وضمها إلى صدره فأخذت تبكي وتنشج عالياً لدرجة أن بللت دموعها قميصه فشعر بالدموع كالنيران تحرق صدره
ظلا على تلك الحالة حتى سمعا صوت المؤذن يؤذن لصلاة الصبح فتنهد يمان بارتياح فقد شعر بالأذان هو الخلاص له من هذا الوضع الذي يجبر نفسه عليه فابتعد عنها كمن لدغته حية ثم قال موضحاً بتلعثم لما رأى الدهشة تعتري قسمات وجهها:
سأذهب لأصلي الصبح
ثم خرج تاركها في حالة من الذهول
وجد والده يتوضأ فتوضأ هو الآخر ثم خرجا سوياً للصلاة
وفي الطريق قال السيد إبراهيم لما لاحظ وجوم ولده:
ماذا بك؟
تنهد بضيق ثم قال:
لا شئ
فقال والده لما لم يقتنع بجوابه:
اذاً لماذا تبدو مهموماً؟،.....هل تشاجرت أنت وزوجتك؟
هز رأسه نفياً وقال:
ولماذا سنتشاجر؟
صمت السيد إبراهيم ولم يزد بعدما أحس أنه لا يرغب في البوح بما لديه
ثم تابعا طريقهما للمسجد في صمت

**********

عادت إلى القصر بوجه مشتعل يتطاير الشرر من عينيها ثم توجهت إلى مخضعها وقامت بتحطيم كل ما وقعت عليه يدها وهي تتوعد يمان وصوت صراخها يجلجل في كل أركان القصر
هرعت ريحانة إلى السلطان لتخبره بأمر السلطانة فليس غيره يستطيع إيقافها
اتجه السلطان لمخضعه فوجدها ثائرة بشكل جنوني فاقترب منها ثم أمسك بيدها محاولاً تهدئتها فما كان منها إلا أن دفعته في صدره بقوة وهي تصرخ:
ابتعد عني
شعر السلطان بالغضب فصفعها على وجهها صفعة قوية سمعها كل من بالقصر ثم قبض على عنقها بقبضته وهدر في وجهها بقوة:
كيف تجرؤين على هذا أيتها العاهرة؟
ثم دفعها للخلف وتابع:
ما أنتِ إلا جارية حقيرة، لذا من الآن فصاعدا ستعودين إلى الحرملك ولن يكون لكِ مكان هنا،
انتبهت لكلامها بعدما قاله فحاولت الإعتذار منه ولكنه صرخ فيها بأعلى صوته:
اغربي عن وجهي
خرجت من مخضع السلطان تجر أذيال الخيبة فبعد مضي ما يقرب من العام ونصف العام قضتها سلطانة على سمرقند تعود جارية كما كانت
جلست على فراشها وهي تبكي في صمت فجاءت إليها سورنا وهي تبتسم ابتسامة شامتة ثم جلست إلى جوارها وقالت بنبرة تهكم:
ماذا، هل انتهت رغبة السلطان فلم يعد بحاجة إليك؟
فرمقتها بنظرة حادة دون النبس بشئ، شعرت سورنا بالغضب من نظراتها فتركتها ورحلت
ظلت في.مكانها تفكر حتى لمعت عينها فجأة فنهضت من مكانها وهي تقول بتحدً:
سأريك يا يمان ما يمكن للجارية فعله
ثم خرجت من الحرملك وهي تستعد لتنفيذ خطتها

في المساء دلف السلطان إلى مخضعه فتفاجأ بها تجلس على الأريكة فصاح فيها بحدة:
من سمح لكُ بالولوج إلى هنا؟
فاقتربت منه بدلال وهي تقول:
اعتذر منك مولاي السلطان، لقد كنت غاضبة ولم أقصد ما حدث
ثم وضعت كأساً من الشراب في يده وتابعت وهي تلف ذراعيها حول جذعه وتسند رأسها إلى صدره:
سامحني مولاي السلطان
ثم رفعت عينها ونظرت في عينه نظرة أذابته فابتسم برضا ثم تجرع ما في الكأس دفعة واحدة وما هي إلا لحظات حتى بدأ يتعرق ويهو يشعر بآلام حادة في أحشاءه فاتقت عينه بعينها فوجدها تنظر نحوه بأعين متسعة وابتسامة ماكرة تعتلي شفتيها فقال بصوت متألم:
ماذا فعلتِ أيتها العاهرة؟
فقالت تجيبه بنبرة هادئة:
هذا ما تستطيع الجارية فعله أيها السلطان
ثم تركته يسقط على الأرض وهو يتلوى في ألم حتى خرجت روحه وسكن جسده عن الحركة
وفي اليوم التالي عرف الجميع بموت السلطان شايان فتسائل الوزير تقي الدين متعجباً:
كيف مات السلطان؟
فقالت سورنا هامسة وهي ترمق جميلة بنظراتها:
أقسم أنكِ الفاعلة
في تلك اللحظة وقفت جميلة أمام كل المتواجدين داخل القصر وقد ترقرت دموع التماسيح داخل عينيها:
هناك أمر ضروري أود إعلامكم به
نظر الجميع نحوها متأهبين فتابعت وهي تمسك ببطنها:
وريث العرش
فغر الوزيير فمه وارتفع حاجبيه في دهشة فقالت سورنا:
مستحيل
نظرت جميلة نحوها ثم قالت وهي ترمقها بنظرة حادة:
وما المستحيل في هذا؟
ثم تابعت بصوت جهوري:

ليعلم الجميع أنني أحمل بين أحشائي وريث عرش السلطان
تبادل الجميع النظرات فمعنى ما تقوله أنها ستعتلي العرش حتى تضع مولودها ويتم إعلانه السلطان بشكل رسمي

بعد أسبوع خرجت إلى العامة لتعلن الخبر بنفسها أمامهم
كان يمان بين الحشود التي اجتمعت فالتقت عينه بعينها فقالت وهي ترمقه بنظرة استعلاء:
أول شئ سأقوم به هو محاسبة الخونة على خيانتهم
كان پارسا يقف بجوار يمان فنظر نحوه لما سمعها تقول هذا فقال بصوت هامس وصل إليه:
أظنها تقصدك يا صديقي
فتنهد يمان بهدوء ثم قال:
هي الخاسرة في كل الأحوال
فقوس پارسا فمه لأسفل ثم أخذ يتابع حديثها حتى انتهت وتفرق الجميع كلٌ إلى وجهته

عادت إلى القصر ثم جلست فوق العرش تفكر في طريقة قاسية لمعاقبة يمان بعد وصفه لها بالجارية

********

وقبيل الفجر كان متمدداً فوق فراشه الأرضي في حجرته فنهض ثم خرج من الحجرة متسللاً على أطراف أصابعه وهو يراقب زوجته النائمة حتى خرج من البيت
سلك الطريق المؤدي إلى القصر وهناك وقف بالقرب منه في نقطة تسمح له برؤية شرفتها
كان يشعر بالحماقة فيما يفعل ولكن ماذا سيفعل الأمر ليس بيده هو ما زال يحبها زقد كان في ذلك الوقت في ذروة شوقه إليها

استيقظت من نومها فجأة فقد سمعت صوتاً ينادي في داخلها يخبرها بأنه قريب، فنهضت من فراشها واتجهت إلى شرفة مخضعها فتفاجأت به يقف أمامها
التقت عينه بعينها فابتسما للحظة وكأنها نسيا ما كان من أمر خصامهما
ولكن سرعان ما اختفت ابتسامتها وعادت إلى الداخل وهي تبتسم بمكر ثم خرجت وهي تصيح في الحراس:
هناك متسلل بالقرب من القصر أمسكوا به وضعوه في السجن حتى أنظر في أمره

عند منتصف النهار كان يمان قابعاً داخل زنزانة منفردة عاري الجذع وقد رسمت آثار سوط على ظهره
فُتح باب الزنزانة ودلفت منه جميلة ثم وقفت أمامه وقالت بنبرة استعلاء وهي تنظر لآثار السوط على جسده:
تؤلمك أليس كذلك؟
فابتسم بزاوية فمه وقال متهكماً:
بالطبع، ولكن ليس بقدر ما تتألمين أنتِ
فقالت باستنكار:
ولماذا سأتألم أنا؟
ثم تابعت لما رأته يرمقها بنظرة واثقة:
هل تظنني أهتم لأجلك؟
قوس فمه لأسفل دون أن يتكلم بشئ
فخرجت من عنده وهي تكاد أن تنفجر
وفي اليوم التالي وفي نفس الوقت كان يمان يقف عاري الجذع معصوب الأعين فوق منصة الإعدام وقد كانت هناك آثار ضرب ودماء جافة على وجهه وأمامه كانت تقف بكل غرور وهي تنظر نحوه باستعلاء
أشارت لأحد الحراس أن ينزع العصابة عن عينه ففعل
فتح يمان عينيه ببطء بسبب ضوء الشمس القوي فالتقت عينه بعينها فوجدها تنظر نحوه بتحدٍ ثم قالت بابتسامة ماكرة:
الآن سترى ما يمكنني فعله بك يا يمان
فابتسم بمرارة ثم قال:
هل تعلمين؟ رغم كل ما فعلته بي حتى اللحظة إلا أن قلبي لا زال ينبض لأجلكِ ولا زال يحبكِ وإن قمتِ بقتلي الآن فسوف أكون سعيداً جداً وهذا لأن عينيكِ هاتين ستكونان آخر شئ آراه في حياتي

ظهر الإضطراب على وجهها وحاولت تحاشي النظر في عينيه ولكنها لم تسطع فرأت فيهما حبها الذي لم ينقصه بعدها عنه بل أصبح أكبر مما مضى فلمعت الدموع في عينيها وقالت بصوت هامس:
لماذا يا يمان؟..... لماذا تحبني؟.....أما كنت تستطيع إيجاد شخص آخر؟
ثم أسندت رأسها إلى صدره وأجهشت بالبكاء،
اشتعلت الهمهمات بين الحاضرين فما الذي تفعله السلطانة الآن ثم تابعت:
لماذا التقيت بي منذ البداية
ثم رفعت رأسها عن صدره ونظرت في عينيه بغضب ثم مدت يدها نحو أحد الحراس فأعطاها سيفها الذي قبضت على مقبضه بقوة وقالت:
سوف تدفع ثمن هذا غالياً يا يمان
فابتسم وقال:
سوف يقتلكِ حبي يوماً ما يا أناستازيا فما زالت عينيكِ تتحدث بما تحاولين إخفاءه
شعرت بالنار تتأجج في داخلها بمجرد أن ناداها باسمها الحقيقي فكم أحبت اسم جميلة وكم كانت تعشقه حين تسمعه منه فلماذا يناديها باسمها هذه المرة؟
ألقت بالسيف أرضاً وقد أعماها غضبها ثم أمسكت بخنجرها وبدون أي مقدمات قامت بطعن يمان طعنة قوية في صدره فالتقت نظراتهما في تلك اللحظة فتذكرت الحلم الذي كان يراودها حين كان في نيسابور وغاب عنها لعدة أشهر ثم تذكرت ما قالته العرافة نرجس عن كونه سيموت على يد إنسان لم يتوقع منه هذا أبداً فشقت دموعها طريقها على وجنتيها بينما سقط يمان على الأرض جثة ساكنة
انتبهت من شرودها على صوت صرخة قوية زلزلت أركان سمرقند فالتفتت نحو مصدرها فإذا بالسيد إبراهيم وپارسا وكيان يقفون متسمرين في أماكنهم بعد أن رأوها تقتل يمان بيدها
سار السيد إبراهيم نحو المنصة التي تستقر عليها جثة وحيده بخطوات متعثرة ثم جثا على ركبتيه بجواره وضمه إلى صدره وهو يقول:
لماذا يا بني؟ ماذا فعلت لك حتى تتركني وترحل؟
ثم تابع وهي يبتسم ابتسامة متألمة:
لقد أرسلت أمك تطلب منهك زيارتها، هيا لتذهب إليها
ثم هطلت الدموع من عينيه كالمطر وهو يصرخ:
بماذا أجيبها؟.....هل أخبرها بأن وليدها الذي غاب عنها لعشرين عام قد مات ولن تراه مرة أخرى؟
ـ ماذا فعلنا لك يا يمان حتى تتركنا وترحل،
ـ كنت أريدك أن تحمل جنازتي وها أنذا من سيحمل جنازتك
ثم صرخ صرخة مزقت قلوب الحاضرين الذين أغرقت الدموع وجوههم تأثراً بحال هذا الأب المكلوم

كانت كيان جاثية هي الأخرى بجواره تزرف الدموع في صمت بينما پارسا لا يزال على حالته المذهولة فهل مات يمان حقاً وتركه؟ لقد كان صديقه الوحيد وكانا قد تواعدا على ألا يفرق بينهما شئ فيكف يتركه ويرحل؟ كيف يخلف بوعده؟
فاقترب من المنصة ثم قال وهو ينظر إلى وجه صديقه الذي انقطعت الدماء عنه وبات شاحباً لا أثر للحياة به:
ما هذا الذي فعلته يا يمان؟.....ألم نتواعد على ألا نفترق حتى آخر العمر؟.....لماذا عجلت بالرحيل وتركتني؟.....مع من سأتشاجر يا فتى؟.....لن أجد أحداً أضايقه ويضايقني كما كنا نفعل؟.....كيف سأعيش في سمرقند بعد رحيلك يا أخي؟

كانت جالسة فوق فراشها تضم ساقيها إلى صدرها ونهرين من الدموع يجريان على وجنتيها في صمت فسمعت صوت باب مخضعها يفتح ويدلف منه يمان فانفرجت شفتاها بابتسامة باكية وهي تمسح دموعها ثم نهضت وأسرعت نحوه وهي تهمس باسمه:
يمان؟
وما إن اقتربت منه حتى شهقت عاليا فقد كانت الدماء تغرق صدره ولا أثر للحياة في وجهه الشاحب وعينيه الذابلتان
فدنت منه أكثر وما إن رفعت يدها لتلمسه حتى تلاشى من أمامها فصرخت بكل ما أوتيت من قوة ثم خرت على الأرض فاقدة وعيها

فتحت عينيها ببطء فوجدت ريحانة تجلس على طرف الفراش بجوارها ومجموعة من الجواري والوصيفات وعلى رأس كل هؤلاء كان الوزير تقي الدين ملتفين حول فراشها فقالت بقلق لما رأتهم مجتمعين هكذا:
ماذا حدث؟
ثم نظرت إلى المكان حولها وتابعت:
ما هذا المكان؟.....وماذا أفعل هنا؟
فأمسكت ريحانة بكفها وقالت:

مولاتي أنتِ في جناحكِ
فقالت باستنكار:
أي جناح هذا يا ريحانة؟ كيف انتقلت من الحرملك إلى هنا؟
تبادل الجميع النظرات المتعجبة حتى قال الوزير:
مولاتي السلطانة أ.....
قهقهت جميلة قاطعة عليه حديثه ثم قالت متهكمة:
سلطانة؟ من؟ أنا؟.....لو سمعتك سورنا لوبختك على ما تقوله أيها الوزير
شعر الوزير بأنها قد بدأت تفقد عقلها بعد قتلها ليمان فقد أخبرته ريحانة عن علاقتهما بعد أن تبدل حالها فأمر الجميع بالإنصراف كي يتركوها لترتاح
كانت ريحانة هي آخر من انصرف من مخضع السلطانة فقالت قبر رحيلها:
مولاتي حاولي أن ترتاحي لبعض الوقت فأنتِ متعبة
ثم خرجت
قوست فمها لأسفل بينما ارتفع حاجبيها لأعلى متعجبة مما يحدث
ظلت في مكانها حتى حل الليل فخرجت من جناحها متسللة واتجهت إلى الحرملك

كانت ريحانة نائمة في فراشها فشعرت بيد تدفع كتفها برفق ففتحت عينيها ونظرت نحو صاحب اليد فإذا بها جميلة التي قالت بمجرد أن رأتها تفتح عينها:
ريحانة أحتاج لمساعدتكِ؟
اعتدلت الأخيرة جالسة فتابعت:
أريدكِ أن تدليني على عرافة
ـ لماذا؟
سألتها ريحانة بتوجس فقالت وهي تتلفت يميناً ويساراً:
سأخبركِ بسر ولا تخبري به أحداً
ثم تابعت:
فتايٍ مختفٍ منذ مدة ولا أعرف أين هو
ارتفع حاجبا ريحانة لأعلى فهل من الممكن أن تكون جميلة قد فقدت عقلها بعد قتلها ليمان؟
ثم قالت بصوت هامس:
مستحيل
ـ وما المستحيل يا ريحانة؟
اذدردت ريحانة ريقها ثم قالت وهي تنظر في عينيها:
لن تتمكني من العثور عليه أبداً
ـ لماذا؟
سألتها متعجبة فقالت:
لأنكِ قتلته بيدكِ قبل أيام
ـ ما هذا الهراء الذي تقولينه يا ريحانة؟
صرخت بها جميلة مما تسبب في إيقاظ بقية الجواري فتابعت ريحانة بتحدٍّ وهي تنظر في عينيها:
نعم قتلته، أنت بيدك قتلت يمان الشاب الذي فتن بكِ وكان مستعداً للتضحية بأجلك،
ثم تابعت وهي ترى نظرات الجواري تكاد أن تخترقها:
قتلتيه يوم أن أرادكِ زوجة ولم تقبلي لطمعكِ وقتليتيه أمام أهل سمرقند وأنهيت حياته، بعد كل هذا تريدين الذهاب إلى عرافة لتدللكِ على مكانه
لم تتحمل جميلة ما تقوله ريحانة ففقدت وعيها مرة أخرى
فقد كانت الأخيرة قد فقدت عقلها بالفعل بعد ما فعلته بيمان ولم يعد بمقدورها أن تستوعب جريمتها فمحى عقلها ذلك تماماً من ذاكرتها كما محى كل خلاف بينهما ولم يبقى في عقلها سوى ذكريات لحظاتهما الأولى

أما بالنسبة للسيد إبراهيم فقد مات بعد ثلاثة أيام من مقتل ولده حزناً عليه وعادت كيان إلى بغداد بعد موت زوجها ووالده
أما بالنسبة لپارسا فقد ترك سمرقند وذهب إلى أصفهان بعدما لم يتحمل العيش فيها

وبعد مضي شهر على مقتل يمان اختفت جميلة من القصر بل ومن كل سمرقند ولم يتمكن أحد من العثور عليها أبداً فتسائل الوزير بدهشة:
ترى أين اختفت؟
فقالت ريحانة وهي تنظر نحوه بتحدٍ:
أعرف مكاناً أظنها ذهبت إليه
نظر نحوها متأهباً فقالت:
سآخذكم إليها

في منطقة القبور القريبة من قصر السلطان وجدوها منكبة على وجهها محتضنة قبراً أسند عند طرفه لوح رخامي كتب عليه اسم...يمان ابن إبراهيم...فتبادل الجميع النظرات حتى أصدر الوزير صوتاً بحنجرته كي تنتبه له ثم قام بمناداتها:
مولاتي..
فلم تصدر منها أية حركة، فاقترب منها ثم دفع كتفها بيده فلم تتحرك فقرر إبعادها عن القبر فوجد جسدها بارد وعينها شاخصة فقالت بذهول وقد اتسعت عينيه:
لقد ماتت
بالفعل ماتت أناستازيا فقد صدق يمان حين أخبرها أن حبها له سيقتلها يوماً ما فهي كانت تحبه بشدة بل وتعشقه ولكن غضبها أعماها وجعلها تقدم على ارتكاب جريمة من أبشع الجرائم التي قد يرتكبها إنسان ولما أدركت فداحة ما فعلته خرجت من القصر تهرول إلى قبره وهناك انهارت وهي تبكي بكل ما أوتيت من قوة حتى ماتت بجوار قبره فهي لم تكن تدرك أن من الحب ما قتل

.....تمت بحمد الله.....